سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة

المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ

ـ رُؤيةٌ قرآنيّةٌ ـ

د. محمد محمود مرتضى

مَرْكَزُ بَرَاثَا للدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
Baratha Center for Studies and Research

المُفسدونَ في الأرض وفقَ الرُّؤيةِ القرآنيّة
-تَفكيكُ البنيةِ المُضادّةِ للاستخلاف-

د. محمد محمود مرتضى

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة ٤

المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ
تَفْكِيكُ البُنْيَةِ المُضَادَّةِ لِلِاسْتِخْلَافِ

د . محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة

يَتخطّى النصُ القرآنيَ كَونَه أحد مَصَادر التشريع الإسلاميّ واستنباط الفتوى، مع التسليم بأهميّة هذا الدور؛ ولئن كان التراثُ التفسيريّ يُحاولُ تنزيل النصّ القرآنيّ على مُشكلات الواقع فَي منظورها الأوسع في مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة، إلا أنّنا في (مركز براثا للدراسات والبحوث) شخّصنا حاجةَ المجتمع الإسلاميّ إلى مستوى أعمق من الاتصال بعلوم القرآن، تبدأ من إشاعة الثقافة القرآنيّة كمنهجٍ معرفيّ وأسلوب حياة وطريقة تفكير، ومنْ ثَمّ قررنا تبيين المباني القرآنيّة لكلّ قضايا الفكر ومناحي الحياة في قِبال نظَيرتها الغربية الماديّة أو الالتقاطيّة.

نُحاولُ في هذه السلْسلة تطوير فهم المتلقي حول القرآن باعتباره كتاب هداية، وحاويًا على منهَج حياة ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾، وتوفير الأرضيّة التي من شأنها تعميق الدرس القرآنيّ، ونقد الدراسات الأخرى عن المعرفة، والإجابة عن الأسئلة الفكريّة والتحدّيات الاجتماعيّة التي تلحّ على العلماء انطلاقًا من أرضيّة القرآن؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا". وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "كتاب اللّه فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و فصل ما بينكم و نحن نعلمه."

ومن خلال (سلْسلَة الدِّراسات القرآنيّة) نفتحُ مساحةً للتثاقف العلميّ المُنصف والنقد البنّاء للرؤى الاستشراقيّة والغربيّة، ونحاول تقديم إجابات على الشبهات المطروحة، والتي أهمها شبهة أن القرآن نصٌّ تاريخي لم يعُد صالحًا لظروف العصر، فنثبت بالدّليل العلميّ وبالمصاديق العمليّة كلام أمير المؤمنين عليه السلام: "... وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق, لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلّا به».

مُقدِّمة

حينَ نفتحُ المُصحفَ، ونَسمعُ قولَ الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، نَشعرُ أنَّ الأمرَ ليسَ عابرًا، وأنَّ الحديثَ لا يَدورُ هنا على خَطأ صغيرٍ، أو ذنبٍ فرديٍّ، بل عن شيءٍ أعمقَ... عن فساد. لكنْ ما هذا الفسادُ؟ ومَن المُفسِدونَ؟ ولماذا يتكرَّرُ ذِكرُهم في القرآن كلَّ هذا التَّكرارَ؟

في هذا الكتاب، نحاولُ أن نقتربَ من هذا المَفهومِ الكبيرِ، الذي يتجاوزُ الوَعظَ الخُلُقيّ، والتَّحليلَ اللُّغويَّ، وينبسطُ أمامنا واقعًا وحقيقةً نُشاهدُها في كلِّ وَقتٍ وفي كلِّ جوانبِ الحياةِ، في نشرِ الكذبِ، وفي الظُّلمِ، وفي تَدميرِ القِيَمِ، وفي التَّلاعبِ بالعُقول، وفي تَخريبِ البيئةِ، في سَرقةِ الأحلامِ. ونجدُ القرآنَ يُواكبُ كلَّ تلك النَّواحي الواقعيّةِ، فيتحدَّثُ عن الفَسادِ بوَصفِه حالةً مُستمرّةً، تتكرَّرُ بصُورٍ جديدةٍ في كلِّ عَصرٍ، وتَتخفَّى أحيانًا خلفَ كلماتٍ جَميلةٍ.

والمُفسِدُ في القرآنِ قد يَحملُ سَيفًا، ويُحارِبُ الفِئةَ المُؤمنةَ، وقد

يكونَ طاغيةً يَجلسُ على عَرش الجَبَروت والتَّسلُّط، لكنَّ الغَريبَ أن يكونَ من النّاسِ الذينَ يَظنُّونَ أنَّهم "يُصلِحُونَ"، وهم في الحَقيقةِ يَزيدونَ النّارَ اشتعالاً، وهؤلاءِ نجدهُم يَصمتونَ حيثُ ننتظرُ منهم الكلامَ، ويُجمِّلونَ الخَطأ حينَ ننتظرُ منهمُ الإنكارَ، ويَسعونَ إلى بثِّ الخَوفِ بدلاً من الأملِ، أو التَّرويجِ للأنانيّة بَدلاً من المَسؤوليّة.

هذا الكتابُ يُحاولُ أن يَفتحَ أعيُنَنا على أنواعِ المُفسدينَ، ونماذج الفَسادِ، وأهدافه، وأدواته، وأسلوبِ القرآنِ في التَّعامُلِ معَه. نُحاولُ أن نعرفَ كيفَ يَظهر الفسادُ، ولماذا يَنتشرُ، وكيفَ يُمكِنُ أن نكونَ جزءًا من الإصلاحِ بَدلاً من أن نتحوَّلَ - دونَ أن نَشعُرَ - إلى جزءٍ من الإفساد؟

يُعلِّمُنا القرآنُ أنَّ الفسادَ يَبدأُ من داخلِ النَّفس من لحظةِ ضَعفٍ، ورَغبةٍ في التَّسلُّط، وطَمعٍ، وكِبرٍ، ونسيانِ الله، والابتعادِ عن شَرعه.

وُضِع هذا الكتابُ لمُخاطبةِ كلِّ القُرّاء، وللهَمسِ في أذنِ الشَّباب، ليكونوا يَقظينَ، عارفينَ بمداخلِ الأمورِ ومَصادرها، لا تَلوي الزَّخارفُ بعزائمهم، ولا يَلتبسُ الحقُّ أمامَ أعيُنِهم.

كتَبناهُ بلغةٍ بسيطةٍ، وأمثلةٍ واضحةٍ، وقصصٍ قرآنيّةٍ نَعيشُها اليومَ بوُجوهٍ مُختلفةٍ.

نريدُه أن يكونَ دَليلَنا لتَمييزِ الفَسادِ حينَ يَلبس ثيابَ الصَّلاحِ، ولرُؤيةِ الطَّريقِ حينَ تتكاثرُ الأصواتُ وتتشوَّشُ الرُّؤيةُ.

اقرأْه بقلبٍ مُنفتحٍ... فرُبَّما تكتشفُ أنَّ المعركةَ ضدَّ الفسادِ تَبدأُ من داخلِنا.

الفصل الأول:

الفسادُ في التصوُّر القرآنيّ -من المَفهوم إلى الرُّؤية-

■ المبحث الأوَّل: الجذر القرآنيُّ للفَساد

حينَ نتأمَّلُ كلمةَ «الفساد»، كما وردتْ في القرآن الكريم، نُدرِكُ منذُ الوَهلة الأولى أنَّ الكلمةَ تُشيرُ إلى اختلالٍ عَميقٍ في نظام الحَياة. إنَّها الكلمةُ التي تَستدعي القلقَ، وتَفتحُ بابَ السُّؤالِ: ما الذي يَحدُثُ حينَ يقعُ الفَسادُ؟ وأيُّ معنًى تَحملُه هذه الكلمةُ في أصلِها؟ وما الذي تَصنعُه في النَّفسِ والعالَمِ حينَ تترسَّخُ؟

إنَّ الجذرَ اللُّغويَّ لكلمة الفساد هو «فسد»، ففي لسان العرب، يدلُّ على: «ضدِّ الصَّلاحِ، فكلُّ ما خرجَ عن الاعتدالِ والصَّلاحِ فقد فَسَدَ، والفسادُ نقيضُ الصَّلاحِ، وقد فسدَ الشَّيءُ يَفسُدُ فَسادًا وفُسودًا، إذا بطلَ واضطربَ»[1]. تُظهِرُ هذهِ الدَّلالةُ أنَّ دلالةَ الفَسادِ تَتجاوزُ الاختلالَ

١ - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، باب الفاء، مادة: فسد

السَّطحيَّ، لتغدوَ هَدمًا لنِظامِ الحياةِ الطَّبيعيّةِ، واضطرابًا في وظيفةِ الكائنات.

أمّا (ابنُ فارسٍ)، في كتابه مقاييس اللُّغة، فقد جمعَ المَعنى في كلمتَينِ اثنتَينِ فقال: «الفَسادُ خُروجُ الشَّيءِ عن الاعتدال، إمّا في نفسه، أو فيما يتعلَّقُ به»[١]. تُضيفُ هذه العبارةُ أُفقًا مُهماً: الفَسادُ لا يَتوقَّفُ عندَ الأشياء، وإنَّما يتسرَّبُ أيضًا إلى العلاقات، والمواقف، والمَفاهيم، ويتعدَّى الأعيانَ إلى الوَظائف.

وفي تهذيب اللُّغة، يقولُ (الأزهريُّ): "الفسادُ تغيُّرُ الشَّيءِ عن وَجهه وطَبعِه"[٢]. ومن هنا، نَفهم أنَّ الفسادَ -من حيثُ الدَّلالة- يشملُ زوالَ الخيرِ، وتغيُّرَ الشَّكلِ والوظيفةِ والمَعنى؛ بحيثُ يَفقِدُ الشَّيءُ هويّتَه التي خُلقَ لها.

بهذه المَعاني المُتضافرة، ندخلُ إلى الفساد، الذي يتردَّدُ في النَّصِّ القرآنيِّ، من بوّابةٍ لغويّةٍ تُنذرُ منذُ البدايةِ بأنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بانحرافٍ عن الأصلِ، وانزياحٍ عن الغايةِ، واختلالٍ في البنية. ولهذا لم يكنْ غريبًا أن يكونَ أوَّلُ ذِكرٍ للفَسادِ في القرآنِ مُرتبِطًا بالاستخلافِ. ففي الآيةِ التي

---

١ - ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الفكر، ط١، بيروت، باب الفاء، فصل السين، مادة: فسد

٢ - الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، مادة: فسد

خاطبَ فيها المَلائكةُ ربَّهم قبلَ خَلقِ الإنسان، قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**﴾ [البقرة: ٣٠].

السُّؤالُ الذي طرحَتْه الملائكةُ يَحملُ في طيّاته فَهمًا أوَّليًّا: أنَّ الفَسادَ مُرتبطٌ بتَعطيلِ الوَظيفةِ التي خُلق الإنسانُ من أجلها، وهي إعمارُ الأرضِ بالعَدلِ والميزان.

وبذلكَ يَظهَرُ أنَّ الفسادَ، بحسبِ الرُّؤيةِ القُرآنيّة، يتدرَّجُ من الانحراف عن القاعدة الخُلُقيّة، ليصلَ إلى المَيلِ عن المَقصدِ الوُجوديِّ. فالإنسانُ مُكلَّفٌ، ومُستخلَفٌ، ومُبتلًى. وكلُّ خروجٍ عن هذا المَسارِ يُعدُّ فَسادًا في الأصلِ، لا مُجرَّدَ خَطأٍ سُلوكيّ.

وإذا انتقلْنا إلى استعمالاتِ القرآنِ لكلمةِ "الفساد"، وجدناها تَدورُ في سياقاتٍ تُبيِّنُ مَدى عُمقِ هذا المَفهوم. ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [البقرة: ٦٠]، نلاحظُ الجمعَ بينَ الفعلِ «عَثا»، الذي يدلُّ على الفسادِ الشَّديد، وبينَ «مُفسدينَ»، وهو ما يُشيرُ إلى أنَّ هناكَ مَن يتعمَّدونَ هذا الإفسادَ، عن قَصدٍ ومَنهجٍ وتَخطيط، لا عن سَهوٍ ومُصادَفة. كما أنَّ التَّكرارَ في الأسلوبِ يُضفي على الجملةِ نغمةَ تَحذيرٍ شَديدة، تَجعلُ من الفسادِ أمرًا لا يَحتملُ التَّأجيلَ.

وفي موضعٍ آخرَ، يقول -سبحانَه-: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: ٨١]؛ حيث نَرى هنا مُفارَقةً عَظيمةً: حتى لو بَدا أنَّ للمُفسِدِ «عَملًا»، فإنَّ اللهَ لا يُصلِحُه. الفَسادُ لا يُزيَّنُ، ولا يُركَّبُ

عليه شَيءٌ نافعٌ. فالعملُ الفاسدُ لا يُثمِرُ؛ لأنَّه خارجٌ عن شبكةِ العَدلِ التي يَقوم عليها الكونُ في رؤيةِ القرآنِ.

وتتكرَّرُ المُفارَقةُ حينَ يقول -تعالى- عن قومٍ من المُنافقينَ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١]، تكشفُ هذه الآيةُ الفسادَ حينَ يتخفَّى في ثيابِ الإصلاحِ. وهنا نَلمحُ بُعدًا رَمزيًّا بالغَ الخُطورة: أنَّ أخطرَ أنواعِ الفسادِ هو ذلكَ الذي يَتزيَّا بالنيّةِ الحَسنة، ويتحدَّثُ بلغةِ التَّعميرِ، لكنَّه يُفرِّغُ المَعنى من مُحتواهُ. فالفسادُ ليس دَومًا واضحًا، بل قد يكونُ مُغلَّفًا بلغةٍ عاليةٍ، ومَصوغًا في خطاباتٍ رَنّانة.

ثم تأتي الآيةُ المحوريّةُ في هذا المَلفِّ، لتَصوغَ بيانًا عالميًّا للواقع: ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١]. تجاوزَ الفسادُ في هذه الآيةِ الهَفواتِ والانحرافاتِ المؤقَّتة، وأصبحَ «ظاهرةً» تَملأُ الأرضَ، وتَنتشرُ في البَرِّ والبَحرِ، في البَسيطةِ والإنسان، في الواقعِ والطَّبيعة. وليسَ السَّببُ مَجهولًا: بما كسبَتْ أيدي النّاسِ. إنَّها مَسؤوليّةٌ، لا صُدفةٌ. والنَّتيجةُ ليسَت عقوبةً خالصةً، بل تَنبيهٌ للرُّجوعِ. إنَّ في بنيةِ الفسادِ فرصةً للتَّوبة، وإنَّ في مرارتِه نداءً للمُراجعة.

وبهذا المَعنى، تُصبحُ دراسةُ الفسادِ في القرآنِ بابًا لفَهمِ أعمَقَ للإنسانِ، للوَظيفةِ، وللابتلاءِ. الجذرُ اللُّغويُّ الذي بدأنا به يَفتحُ أبوابًا

لفَهم الحركةِ الإنسانيّة نفسها: ما الذي يُخرجُنا عن الاعتدال؟ كيفَ نَبتعِدُ عن الغايةِ دونَ أن نَشعُرَ؟ متى يتحوَّلُ الخَطأُ إلى مَنهجٍ؟ ومتى يُصبحُ الصَّمتُ عن الفسادِ وسيلةً من وسائل المُشارَكةِ فيه؟

إذًا، الفَهمُ اللُّغويُّ هو تأسيسٌ لمَوقفٍ قرآنيٍّ عَميق. فالذي يُدركُ أنَّ الفسادَ تغيرٌّ عن الأصلِ يَعلَمُ أنَّ الإصلاحَ لا يكونُ إلاّ بالعَودةِ إلى الغايةِ الأولى، أي إلى العَدلِ، والتَّوحيدِ، والميزان.

ومن هنا يَبدأُ الكتابُ: من جذرِ الفَسادِ، لمُحاولةِ اجتثاثِه من المَعنى... ومن القلبِ.

■ المبحث الثاني:
الفساد بوَصفِه نَقيضًا للاستخلاف - الرُّؤية القرآنيّة الكلِّيّة-

حينَ نتأمَّلُ أوَّلَ مشهدٍ قرآنيٍّ يتحدَّثُ عن الإنسان، نُفاجَأُ بأنَّ القضيّةَ لا تبدأُ من التَّعريف، بل من التَّساؤُل. المَلائكةُ، في مشهدِ الخَلقِ الأوَّل، لا يَطلبونَ مَعلومةً عن طبيعةِ الإنسان، بل يَسألونَ عن أثَره:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هذا السُّؤالُ يُلخِّصُ مَخاوفَ البَدء: أن تكونَ الأرضُ مَيدانًا للفساد، بدلَ أن تكونَ ساحةً للتَّسبيحِ والتَّقديسِ. والردُّ الإلهيُّ لم يأتِ بنَقضِ

القلق، بل بإشارةٍ إلى علمٍ أوسَعَ: «إنيِّ أعلَمُ ما لا تَعلمون». كأنَّ الفسادَ مُمكنٌ، لكنَّه ليس حَتميًّا، وكأنَّ الوظيفةَ الأصليّةَ، التي خُلق الإنسانُ من أجلها، يمُكنُ أن تُحرَفَ، لكنَّها أيضًا قابلةٌ للإصلاحِ والوَفاء.

في هذه اللَّحظةِ التأسيسيّة، نكتشفُ أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ لحَملِ أمانة، فهو قد وُضِعَ على الأرض ليَعمُرَها لا ليَستهلِكَها، وليُوازنَها لا ليَعلُوَ عليها. وهذا ما يُعبِّرُ عنه مفهومُ الاستخلافِ، وهو أحَدُ أعمدةِ الرُّؤيةِ القرآنيّةِ للوجودِ الإنسانيِّ.

في قوله -تعالى-:﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]، نجدُ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ ليكونَ مَسؤولًا عن الأرضِ، يَبنيها ويَعمرُها، ويُقيمُ فيها القسطَ، والعَدلَ، والميزانَ، ويَتعاملَ معَها بوصفِها أمانةً لا غَنيمةً.

في هذا السِّياق، يُصبحُ الفسادُ نَقيضًا مُباشرًا للاستخلاف؛ لأنَّه يُبطِلُ الغايةَ التي وُضِعَ الإنسانُ لأجلها. ولهذا، يُعامِلُ القرآنُ الفسادَ على أنَّه خطرٌ يُهدِّدُ الوجودَ ذاتَه، ويُفسدُ العلاقةَ بينَ الإنسانِ وربِّه، وبينَ الإنسانِ ونفسه، وبينَ الإنسانِ والعالَم.

حينَ يَربطُ القرآنُ بينَ الفسادِ وعلوِّ (فرعونَ)، فإنَّه يَعرِضُ صورةً أوسَعَ من مسألةِ التسلُّطِ والاستبداد: ﴿**إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا**﴾ [القصص: ٤]، يَتجاوزُ العُلوُّ هنا المكانَ، ليتعلَّقَ بالموقفِ، والاستكبارِ، والرَّغبةِ في السَّيطرةِ، وتَقسيمِ النّاسِ واستضعافِ

بعضِهم. وهذا هو الفسادُ الحَقيقيُّ: أن يتحوَّلَ الإنسانُ من مُستخلَفٍ عادلٍ إلى مُتسلِّطٍ جائرٍ، ومن حاملٍ للميزانِ إلى لاعبٍ به.

ولذلك، يَرِدُ في سورة الرَّحمن قولُه -تعالى-: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ**﴾ [الرحمن: ٧-٩]، تتجاوزُ هذه الآياتُ حدودَ الموعظةِ، وتمثِّلُ قاعدةً كونيّةً ثابتةً. فكلُّ شيءٍ في الوجودِ قائمٌ على التَّوازنِ؛ حيث إنَّ الفسادَ يَبدأُ من طُغيانٍ، وخروجٍ عن الميزانِ، ومن خَللٍ في القسطِ.

ولَمّا كانَ الإصلاحُ أصلاً في خَلقِ الله، فإنَّ الإفسادَ يُعتَبَرُ تعدِّيًا على هذا الأصلِ. لذلك، يأتي النَّهيُ الصَّريحُ في قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٦]. فالآيةُ واضحةٌ: الأرضُ قد أُصلِحَت. والفسادُ ليس في طبيعتها، بل في يدِ الإنسان. والنَّهيُ يتناولُ العودةَ إلى الفَسادِ بعدَ أن قامَت قِيَمُ العَدلِ والخَيرِ، كأنَّ المسارَ الطَّبيعيَّ للأرضِ هو الإصلاحُ، والفسادُ هو الانحرافُ.

ومن هذا المُنطلَقِ، يَظهرُ أنَّ الفسادَ عدوانٌ على النِّظامِ الكونيِّ، وعلى النِّعمةِ التي أنعمَ اللهُ بها على الإنسان. كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧].

يأتي الخطابُ هنا ضمنَ سياقِ الحديثِ عن (قارونَ)، الذي ظنَّ أنَّ مالَه حقٌّ شخصيٌّ، لا مسؤوليّةٌ اجتماعيّةٌ. وتُحذِّر الآيةُ من استخدامِ النِّعمةِ أداةً للعُلوِّ، ومن تَحويلِ الرِّزقِ إلى وسيلةٍ للتَّدميرِ، لا للبناء.

في كلِّ هذه الآياتِ، يُقدِّمُ القرآنُ تصوُّرًا مُتكاملاً: الإنسانُ مُكلَّفٌ، والأرضُ أمانةٌ، والاستخلافُ وظيفةٌ، والميزانُ قاعدةٌ. وكلُّ انحرافٍ عن هذهِ المَنظومةِ يُسمَّى "فسادًا". ولهذا، فإنَّ مُواجَهةَ الفسادِ مُقاوَمةٌ للجَريمةِ، وفي الوقتِ ذاتِه دفاعٌ عن مَعنى الإنسانِ، واستعادةٌ لوظيفتِه الأولى.

وحينَ يتكلَّمُ القرآنُ عن المُفسدينَ، فإنَّه يَصِفُهم بأفعالِهم أوَّلًا، ثمَّ بمَواقفِهم من الوظيفةِ الوجوديّةِ ثانيًا. فهُم يَرفضونَ الإصلاحَ، ويُزيِّفونَ صورتَه، ويَقلبونَ مَعناهُ. كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١]. وهنا تَظهرُ الخطورةَ، وذلك في أنْ يُصبحَ الفسادُ جزءًا من اللُّغة اليوميّة، وأنْ يُبرَّرَ بالسِّياسةِ أو الاقتصادِ أو الحرصِ على الأمنِ، وأنْ يُقدَّمَ للنّاسِ باعتباره خيارًا واقعيًّا.

ولهذا، فإنَّ الوَعيَ بالفسادِ- في ضوءِ القرآنِ- يَبدأُ من الدّاخِلِ لا من الخارج؛ أي يَبدأُ من مُراجعة موقفِ الإنسانِ من ذاته، وغايتِه، ومن الله، ومن النّاسِ؛ حيث يَبدأُ من سُؤالٍ بَسيطٍ: هل أُقيمُ الميزانَ في حياتي؟ هل أُساهِمُ في بناءِ عالَمٍ أكثرَ عَدلًا؟ أم أنَّني، بطريقةٍ أو أخرى،

أُضيفُ شيئًا من الفسادِ ولو بغَيرِ قَصد؟

وهكذا، لا يَعود الفَسادُ ظاهرةً نَراها في الطُّغاة أو المُستبدِّينَ فقط، وإنَّما تتسلَّلُ إلى كلِّ لحظة من لحظاتنا، وكلِّ موقفٍ نَختارُه، وكلِّ صَمت نَتواطأُ فيه، أو قول نُجمِّلُ به الباطلَ.

إذًا، الفسادُ هو اختلالٌ في المَعنى، وليس فقط في البِناء. وحينَ نُعيد فهمَه بهذا العُمقِ، نقتربُ من الاستخلافِ بوصفه مَسؤوليّةً واجبةً عَلينا.

■ المبحث الثّالث:
من الفعلِ الفرديِّ إلى البنية المُنظَّمةِ – الفسادُ بصفته أفقًا وجوديًّا-

حينَ يُذكر الفسادُ، يَتبادرُ إلى الذِّهنِ في الحال فعلٌ مُعيَّنٌ: رشوة، أو ظُلم، أو سَرقة، أو تخريب. هذا الفهمُ صحيحٌ في صورته الأولى، لكنَّه يَبقى مَحدودًا إذا لم ننتبه إلى أنَّ الفسادَ، كما يُصوِّرُه القرآنُ، أوسَعُ من مُجرَّدِ فعلٍ مَعزول. إنَّه يشملُ ما يَحدثُ، وما يُعاد إنتاجُه. إنَّه نمطٌ، وذِهنيّةٌ، وسياقٌ كاملٌ من العلاقات والمَواقفِ والنَّتائجِ، يتكرَّرُ حتى دونَ أن يُدركَه أصحابُه. وهنا يتحوَّلُ الفسادُ من واقعةٍ فرديّةٍ إلى بنيةٍ مَنظومةٍ.

في القرآن، لا يُحاكَم الفسادُ باعتباره حادثةً، بل يُفكَّكُ باعتباره حالةً. فرعونُ لم يكنْ مُفسدًا لأنَّه قال شيئًا خاطئًا فقط، بل لأنَّه أسَّسَ مُنظَّمةً كاملةً للإفساد. يقول -تعالى-: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٤]. لاحِظْ كيفَ أنَّ الآيةَ تَعرضُ سلسلةً مُترابطةً من الأفعالِ، تتولَّدُ من موقعِ فرعونَ في الأرض: علوّ، وتَفرقة، واستضعاف، وقَتل، ولا تقفُ عندَ جريمةٍ واحدة. وهنا تتَّضحُ الفكرةُ: الفسادُ ليسَ خطأً، بل شبكةً مُمتدّةً، تَبدأُ من الذِّهنيّةِ، وتُترجَمُ إلى مُمارسات، وتُنتِجُ واقعًا يَصعُبُ تَغييرُه.

وفي آياتٍ أُخرى، نجدُ أنَّ الإفسادَ قد يأتي من مُجرَّد الصَّمت أو التَّهاون. كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٥]. الفسادُ هنا نتيجةٌ لنَقضِ العَهد، وقَطعِ الصِّلة، وهَدمِ ما أمرَ اللهُ به أن يُبنى. إذًا، قد يكونُ الفسادُ سَلبيًّا: أن تمتنعَ عن فعلِ الخيرِ حينَ يَجب، وأن تَترُكَ الصَّدعَ يَكبرُ دونَ تدخُّل، وأن تَرى الخللَ وتُشيحَ بنَظرِكَ.

وهذا ما يَجعلُ الفسادَ في القرآن حالةً مركَّبةً: يَبدأ من داخل النَّفس، ويَتكوّن في اللُّغة، ويَستقرُّ في الواقع، حتى يَغدُوَ مَألوفًا. وعندَ هذه المَرحلةِ، يَفقِدُ النّاسُ حساسيّتَهُم تجاهَه. يُعادُ تَعريفُ القِيَم، وتُصاغُ

المُبرِّراتُ، وتتحوَّلُ الرَّذيلةُ إلى خيار مُمكن وربمَّا مَقبول. خُذْ مَثلاً قولَ الله -تعالى-: ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ**﴾ [الروم: ٤١]. تَعني كلمةُ «ظَهَرَ» أنَّ الفسادَ أصبحَ واضِحًا، ومَحسوسًا، ومَعيشًا. وهذا الظُّهورُ لا يتعلَّقُ بشخصٍ واحد أو جماعة بعَينها، بل هو نتيجةٌ لِما كسبَت أيدي النّاس. الجميعُ مُسهمٌ بدرجة ما، والجميعُ مَسؤولٌ. وهنا تُفهَم «البنيةُ»: يتقوَّى الفسادُ بسُكوت النّاس، بتكرار الأعذار، وتَطبيع الظُّلم، وتَزييف الخطاب، وتَقاسُم المَنافع.

من هذا المَنظور، يُصبحُ الفسادُ أفقًا وُجوديًّا، لا مُجرَّدَ خرق لقانون. حينَ تَنتشرُ الذَّرائعُ، ويَضعف صوتُ الضَّمير، وتُحوَّلُ المَبادئُ إلى شعارات فقط، يُصبحُ الفسادُ طريقةَ حياة، ويتحوَّلُ إلى ما يُشبهُ الجوَّ العامَّ، الذي نَتنفَّسُه دونَ أن نَراه.

وهذا ما يُظهرُه القرآنُ في تَحذيره من المُفسدينَ الذين: ﴿**ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٤٥]. يتحوَّلُ الفسادُ هنا إلى محاولة لتَشويه الطَّريق نفسه، ولتَقليب الحقِّ، لجَعلِ المُستقيم مُعوجًّا، فتتجاوزُ المشكلةُ السُّلوكَ، إلى المَسار، والاتِّجاه، والبوصلة.

وحينَ تُصبحُ هذه البنيةُ سائدةً، فإنَّها تُنتجُ جيلاً من النّاس لا يَرى نفسَه مُفسدًا، لكنَّه يَعيشُ في مَنظومة تُكرِّسُ الفَسادَ. ولهذا كان أخطرَ أنواعِ الفسادِ، في القرآن، هو ذاكَ الذي يُقدَّمُ على أنَّه إصلاحٌ، كما في

قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ٨ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: ١١-١٢]. المُفسِدونَ هنا لا يَشعرونَ؛ لأنَّ الفسادَ تحوَّلَ إلى خلفيّةٍ مَألوفة، وإلى قاعدةٍ مَنسيّة، وإلى نظامٍ مُستقرٍّ. وعندَما يَبلغُ الفسادُ هذا الحدَّ، لا يُمكِنُ إصلاحُه بالقوانينِ فقط، بل يَحتاجُ إلى يقظةٍ ووَعي، ومراجعةٍ داخليّة، وتَفكيكِ الرُّموز، وخطابٍ يُعيد الأمورَ إلى نصابِها.

لا يَعني الفسادُ -من حيث كونه أفقًا وجوديًّا- أنَّ الهلاكَ حتميٌّ، لكنَّه يُحذِّرُ من أنَّ التَّجاهُلَ يَقودُ إلى نقطة اللاّ عودة. ولهذا ربطَ القرآنُ بينَ الفسادِ والعاقبة، فقال -تعالى-: ﴿**فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل: ١٤]. فهم لا يَربحونَ في النِّهايةِ، مَهما طالَ مَكرُهُم. والمهمُّ لنا أنْ لا نترقَّبَ هَلاكَهُم، وإنَّما أنْ نتعرَّفَ عليهم قبلَ فواتِ الأوانِ.

الفصل الثاني:

أنواع المُفسِدينَ -الطَّبقات والأدوار والمَواقع-

■ المبحث الأول:
المُفسدونَ الأفرادُ –من السُّلوكِ الشَّخصيِّ إلى التَّعطيلِ الجَماعيّ-

عندَما نَسمعُ كلمة «المُفسدينَ»، قد يَخطرُ في بالنا صورةُ الطُّغاة والجَبابرة أصحابِ النُّفوذ، أو الذينَ يمَلكونَ سلطةً تُخيفُ وتُرهبُ. لكنَّ القرآنَ الكريمَ يَتجاوزُ حدودَ هذه الدّائرة المُفسدة بالفعل، ويُرشِدُنا إلى صُوَرٍ أخرى للفَساد، فيَلفتُ نظرَنا إلى أنَّ المُفسِدَ قد يكون فردًا عاديًّا، لا يَمتلكُ سلطةً رسميّةً، ولا مالاً وَفيرًا، لكنَّه يُمارسُ الفسادَ في أبسطِ علاقاته، وفي كلماته، ونواياهُ، وسُلوكه اليَوميّ.

المُفسدونَ الأفرادُ هُم أُولى طبقاتِ الإفساد، وأخطرُها من حيثُ التسلُّلُ الخفيُّ. فهم لا يَحملونَ لافتات، ولا يُعلِنونَ عن أهدافِهم، وقد لا يَشعرونَ أصلاً بأنَّهم يُفسِدونَ. لكنَّهم عبرَ اختياراتِهم، وسُلوكِهم، وتفاعُلِهم معَ النّاسِ، يُسهِمونَ في نشرِ اختلالاتٍ صغيرةٍ، تَتراكَمُ لتُنتجَ فسادًا اجتماعيًّا واسعًا، حتى دونَ قصدٍ أو تَخطيطٍ.

في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، نَجدُ أنَّ الإفسادَ هنا يتمثَّلُ في الكتمان، فمُجرَّدُ الامتناعِ عن قولِ الحقِّ، أو إخفاءُ المَعرفة، هو نوعٌ من الفسادِ الذي يُمارِسُه فردٌ قد يَبدو طيِّبًا من الخارج، لكنَّه يُعطِّلُ مَسارَ الهدايةِ الجماعيّة. إذًا، قد يَبتعدُ الفسادُ الفرديُّ عن العُدوانيّة، ويكتفي بأنْ يكونَ سلبيًّا: سكوتٌ في موضع وجوبِ الكلام، ومُسايرةٌ في موضعِ وجوبِ التَّمييز، وتردُّدٌ حينَ يتطلَّبُ المَوقفُ حَسمًا.

ومن الآياتِ اللاّفتة للانتباه في هذا السِّياق، قوله -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]. يُمثِّلُ هذا النَّموذجُ المُفسدَ الفردَ بامتياز: يُجيدُ الحديثَ، ويُظهرُ التَّقوى، ويتكلَّمُ باسمِ القِيَم، لكنَّه يُمارِسُ التَّخريبَ من الدّاخلِ، ويَزحَفُ بخُطىً ناعمةٍ نحو تدميرِ العَلاقات، وإهلاكِ الحرث والنسل.

قد يكونُ الفردُ المُفسدُ في القرآن ذكيًّا وبارعًا في التَّمويه، وقويًّا في الإقناع، لكنَّه فاقدٌ للبوصلة. ولهذا، فإنَّ ضررَهُ يُقاسُ بقُدرته على تَفكيكِ الثِّقة، وخَلقِ جوٍّ من الاضطرابِ؛ حيثُ لا يُعرف الحقُّ من الباطلِ، ولا الصِّدقُ من التَّمثيلِ.

وهناكَ نمطٌ آخَرُ من المُفسدينَ الأفرادِ، يتمثَّلُ في الذي يُبرِّرُ لنفسه الفسادَ؛ لأنَّه "لا يَضرُّ أحَدًا" في حياتِه الشَّخصيّة، وقد يُشيعُ البَذاءةَ، أو يَستخفُّ بالقِيَم، أو يُهمِّشُ الواجبات. وقد يُردِّدُ عباراتٍ مثل: "أنا حرٌّ"، و"هذه حَياتي"، و"مِن حَقِّي أن أفعلَ ما أشاءُ".

لكنَّ الحريّةَ التي تتجاهَلُ أثرَ الفردِ على المُحيطِ تتحوَّلُ إلى فَوضى. فالفردُ في القرآنِ مُؤثِّرٌ ومُتأثِّرٌ، وليس كائنًا معزولاً. ولهذا، فإنَّ كلَّ فردٍ قادرٌ على الإفساد، إذا أهملَ أثَره. ففي قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ**﴾ [البقرة: ٨-١٠]، نَرى كيفَ يَبدأُ الفسادُ من الدّاخلِ: مِن الكذبِ على النَّفسِ، ومن خداعِ الذّاتِ قبلَ خداعِ الآخَرينَ. وهذا ما يَجعلُ الفسادَ الفرديَّ أخطرَ من الفسادِ المُؤسَّسيِّ أحيانًا؛ لأنَّه يَبدأُ بلا صَوتٍ، ويَكبرُ بلا مُقاوَمةٍ، ثم يُصبحُ مزاجًا عامًّا.

يكونُ الفردُ المُفسِدُ في المجتمعاتِ هو مَن يُعيد تَدويرَ الأعذارِ أحيانًا، وهذا ما يمكن تلمّسه في مثل هذه الأقوال: «هذا الشيء – الكذائي- يفعله الناس كلّهم» أو "لن يتغيّر شيء» أو "هل تتوقّف مسيرة الإصلاح عليَّ؟!" أو «هكذا تسير الأمور.» هذه العباراتُ وغيرها ليسَت بريئةً، إنَّها أدواتُ تَعطيلٍ مَعنويٍّ، تُنقَلُ من شخصٍ لآخَرَ، وتُصبحُ

ثقافةً. ولهذا، فإنَّ أوَّلَ مُواجَهةٍ للفَسادِ تَبدأُ من مُراجعةِ النَّفسِ، ومن سؤالٍ بسيط:

هل أنا جزءٌ من البناءِ، أم جزءٌ من التآكلِ البَطيءِ؟ وهل أُسهِمُ في تَعميقِ الوَعي، أم في تَعميمِ انعدام جَدوى؟ وهل أُضيفُ لمَعنى الحياةِ شيئًا، أو أُعيد تدويرَ العَجزِ والتَّسويف فقط؟

عندما يُشيرُ القرآنُ إلى المُفسدينَ الأفرادِ، إنَّما يَفعلُ ذلك لِلَفتِ النَّظرِ إلى أنَّ التَّغييرَ لا يَبدأُ من الأعلى، بل من الدّاخلِ. ولهذا قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، هذه الآيةُ، في عُمقِها، دعوةٌ لمُحاسبةِ الذّاتِ، وللوَعي بأنَّ الفسادَ لا يَحتاجُ دائمًا إلى مُؤامرةٍ، ويَكفيهِ غَفلةٌ طَويلة.

■ المبحث الثاني:
المُفسِدونَ المؤسَّسيُّونَ - النُّخَب، الحاشية، دوائر السُّلطة-

حينَ يتحوَّلُ الفسادُ من حالةٍ فرديّةٍ إلى شبكةٍ مُنظَّمة، تَنتقلُ الظّاهرةُ من مستوى السُّلوكِ إلى مُستوى التأثير. وهنا نتحدَّثُ عن المُفسدينَ المؤسَّسيِّينَ: أولئكَ الذينَ، كما يُفسِدونَ بأفعالِهم، يُفسِدونَ في المَوقعِ الذي يَشغلونَه، والسُّلطةِ التي يَستخدمونَها، والصَّمتِ الذي يَفرِضونَه.

وهم لا يتحرَّكونَ وحدَهم، بل يَصنعونَ بيئةً تُشرِّع الفسادَ، وتَحميهِ، وتُعيدُ إنتاجَه.

أبرَزُ نموذجٍ في القرآن الكريم لهذا النَّوعِ من المُفسدينَ كما في قصّة نبيّ الله (موسى) عليه السلام، هم الملأُ وحاشيةُ (فِرعونَ)؛ حيث كانَ (فرعونُ) سيِّدَ مشهدِ الاستكبار، ومعَه حاشيتُه: هامانُ، وقارونُ، والسَّحرةُ، والمُستشارونَ، والجُنودُ، وكلُّ مَن كان أركانَ سُلطته، يقول الله -تعالى-: ﴿**وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦].

تأمَّلْ -أيّها القارئ الكريم- في هذه المُفارَقة: يتَّهمُ (فرعونُ) (مُوسى) بالإفساد، على حين أنَّه هو من يُخطِّطُ للقَتلِ والقَمع. وفرعونَ -في هذا الأمر- ليسَ وحيدًا، وإنَّما هناكَ مَن يُساعِدُه في قَلبِ المَفاهيم، ويُجمِّلُ له الصُّورةَ، ويُسوِّقُ خطابَه، ويُعيد تكوين المَعاني لتخدمَ هَيمنته.

حينَ تكونُ السُّلطةُ مُطلَقةً، تُصبحُ أرضًا خصبةً للفَساد. لكنَّ الأخطرَ من ذلك هو دائرةُ النُّخَب التي تَدورُ حولَ هذه السُّلطة:

- النُّخبةُ الإعلاميّةُ التي تُبرِّرُ القَمعَ.
- النُّخبةُ الدِّينيّةُ التي تُشرِّع الظُّلم باسمِ الطّاعة.
- النُّخبةُ الاقتصاديّةُ التي تُراكِمُ المالَ بغِطاءٍ مَشروعٍ.
- النُّخبةُ الثَّقافيّةُ التي تَخلطُ بينَ التَّنوير والتَّضليل.

هؤلاءِ يُفسِدونَ بما يُصوِّرونَه على أنَّه الطَّبيعيُّ، والمَقبولُ، والمُقدَّسُ

أحيانًا. وهم – في كثيرٍ من الأحيان – يَميلونَ عن الصَّدارةِ، ويعملونَ في الخفاء؛ حيث يُوجِّهونَ الرأي العام، ويُحرِّكونَ الناس نحو مبتغاهم.

في قصّة (قارونَ) -مَثلاً- نَرى صُورةً دَقيقةً للمُفسد المُؤسَّسيّ. يقول -تعالى-: ﴿**إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ**﴾ [القصص: ٧٦]؛ حيث كان (قارونُ) نَموذجًا للنُّفوذِ الماليِّ الذي يُغيِّرُ القِيَمَ، ولم يكنْ من طُغاةِ السِّياسةِ أو العَسكَرِ. فحينَ خرجَ على قومه في زينته، قالَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا، وتَخدَعُهُم المَظاهرُ: ﴿**يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ**﴾ [القصص: ٧٩]. وهنا يَظهرُ خطرُ هذا النَّموذجِ، حينما يتحوَّلُ النَّجاحِ المادِّيّ إلى معيارٍ للحقّ، وأنْ يُقاسَ الإنسانُ بما يَملكُ لا بما يُقدِّمُ، وأن تُعطى الكلمةُ لصاحبِ الثَّروةِ، لا لصاحبِ المَوقف.

كانَ (قارونُ) يَملكُ شبكةً من الأعوانِ والمُوظَّفينَ، والحُرّاسِ، والمُحاسبينَ، فالفسادُ المُؤسَّسيُّ لا يقومُ به شخصٌ، وإنَّما يَحتاجُ إلى هندسةِ نظامٍ، وتوزيعٍ للأدوارِ، وغطاءٍ قانونيٍّ وقِيَميّ. وهذا ما نَراهُ أيضًا في الآيةِ التي تَصفُ المُفسدينَ بـ: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ**﴾ [الرعد: ٢٥]، فهُم يَخرقونَ نظامَ العَدالةِ، ويُقطِّعونَ العَلاقاتِ والعُهودَ والبنى.

تتكرَّرُ -في عصرنا- هذه الصُّورةُ في مُؤسَّساتٍ تتحوَّلُ من أدواتِ

خدمةٍ إلى أدواتِ تحكُّمٍ؛ حيث تعطِّلُ أجهزةُ إدارة دولة فاسدة مَصالحَ النّاسِ بالتَّسويفِ، ويُقَنِّنُ نظامها القضائيّ الظُّلمَ، ويخفي إعلامها الحَقيقةَ، ويميت تعليمها البحث العلميّ.

لا يَحمل هؤلاءِ المُفسدونَ لافتات، ولا يَرفعونَ شعاراتٍ ضدَّ القِيَم، ولا يُشهرونَ السِّلاحَ، وإنَّما يُذيبونَ القِيَمَ بهدوءٍ، ويُحوِّلونَ الفسادَ إلى واقعٍ يُدار لا إلى حالةٍ تُرفَض. والخطرُ فيهم أنَّهم يُبدونَ الانضباطَ، والاحترافَ، والشَّرعيّةَ. ولهذا، فإنَّ القرآنَ حينَ يتحدَّثُ عن "المَلأ" – وهم النَّخبةُ المتُحكِّمةُ في المُجتمعاتِ القَديمة – يتحدَّثُ عنهم باعتبارهم عائقًا في وجهِ الرِّسالات. يقول -تعالى-: ﴿**وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ**﴾ [الأعراف: ١٢٧]، إنَّهم يستأثِرونَ بالحُكمِ، ويَصنعونَ القرارَ، ويُوجِّهونَ الرُّؤيةَ، ويَحتكرونَ التَّفسيرَ.

■ المبحث الثالث:
المُفسدونَ المُقنَّعونَ -الإصلاحيُّ الزّائفُ، المُتديِّنُ المَغشوشُ، والمُثقَّفُ المُضلَّلُ-

قد يكونُ الفسادُ صاخبًا وعَلنيًّا، ولكنَّه في المُقابلِ قد يُمارَسُ بصَمتٍ، ورُبَّما يُقدَّمُ أحيانًا على أنَّه فَضيلةٌ.

وهنا تتجلَّى أخطَرُ أنواعه: حينَ يَلبسُ لباسَ الإصلاحِ، ويتكلَّمُ بلسانِ الهُدى، ويَقفُ في موقعِ المُعلِّم أو الواعظ أو المُنقذ. هذا النَّمطُ من المُفسدينَ هو الأخطَرُ في البناءِ الاجتماعيِّ؛ لأنَّه يَهدِمُ من الدّاخلِ بالكلمةِ والتَّشويشِ، لا بالسِّلاحِ والهَدمِ العلنيِّ. وقد كشفَ القرآنُ الكريمُ هذا النَّوعَ من المُفسدينَ بكثيرٍ من الوضوحِ في قوله -تعالى-: ﴿**إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: ١١-١٢]؛ حيث نجدُ وَصفًا دَقيقًا للمُفسدِ المُقنَّعِ: يتكلَّمُ بلغةِ الإصلاحِ، ويَعتقدُ أنَّه على صَوابٍ، ورُبَّما يُقنعُ غيرَه بذلكَ، لكنَّه في الحَقيقةِ يَقلبُ المَعنى؛ إذ يَبدأُ الإفسادُ عندَه بتَغييرِ المَفاهيمِ، وتَشويهِ المَعاييرِ، وإرباكِ الوجهةِ الصالحة، ثمَّ يأتي دورِ فعله.

أوَّلُ هذه الأنماطِ هو الإصلاحيُّ الزّائفُ؛ ذلكَ الذي يُنادي بالقِيَمِ العُليا، لكنَّه يَستخدِمُها بوصفها ستارًا، ويتحدَّثُ عن العَدالةِ وهو يُحابي المفسدين، وعن الشَّفافيّةِ وهو يُخفي فساده، وعن خدمةِ النّاسِ وهو يُراكِمُ المكاسبَ على حسابهم. وتَراهُ في مواقعِ القرارِ أحيانًا، أو في مواقعِ العَملِ الأهليِّ، أو في المُبادَراتِ العامّة، لكنَّه يَتعامَلُ مع النّاسِ باعتبارهم واجهةً لا أمانةً، وفي كثيرٍ من الأحيان، يكونُ بارعًا في الخطابِ، وجَذّابًا في الصُّورة، لكنَّه فاقدٌ للصِّدقِ الدّاخلي، وهذا ما يُحذِّرُ منه القرآنُ حين يقول: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٣].

أمّا النَّمَطُ الثّاني فهو المُتديِّنُ المَغشوشُ الذي يَرفعُ لافتةَ الدِّين، ولا يَحملُ جوهرَه، وقد يُكثرُ من المَواعظ، أو يُظهرُ التَّديُّنَ، أو يُلوِّحُ بالأحكام، لكنَّه يُوظِّفُ الدِّينَ لخدمة ذاته، أو جماعته، أو سُلطته. وهذا النَّموذجُ خَطرُه كَبيرٌ؛ لأنَّه يُعطي للنَّاسَ شُعورًا كاذبًا بالأمان، كما في قول الله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ**﴾ [البقرة: ٢٠٤]. لا يتحدَّثُ هذا الشَّخصُ باسمِ نفسه، ولا يُعبِّرُ عن وُجهةِ نظرِه الشَّخصيّة، وإنَّما يُشركُ اللهَ في شهادته، ويُلبسُ ظنَّه لباسَ اليَقين، وحينَ يُكشَفُ أمرُهُ يكونُ ألدَّ النّاسِ في الخِصام؛ لأنَّه اعتادَ أن يَحتميَ بالدِّين، لا أن يَخضَعَ له.

ثم يأتي النَّمَطُ الثّالثُ: المُثقَّفُ المُضلَّلُ، وهو الذي يَملكُ أدواتِ الفكر، ومَوهبةَ التَّعبير، والقُدرةَ على التَّأثير، لكنَّه يَستخدمُ هذه الهباتِ لإرباكِ النّاس، لا لإضاءة الطَّريق، ويتخفَّى خلفَ "الأسئلة"، لكنَّه يَبحثُ عن خَلخلة واضطراب، لا عن جَواب، ويُوظِّفُ الكلمات ليُربِكَ، ويُحوِّلَ القَضايا العَميقةً إلى تَرَفٍ نَظريٍّ. وقد أشار القرآنُ النَّمطَ إليه في نماذجَ عدّة، منها: السّامريُّ، الذي صنعَ عِجلًا من الذَّهب، حيث قال -تعالى-: ﴿**فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ [طه: ٨٨]؛ إذ لم يَطلبْ (السّامريُّ) منهم عبادةَ العِجلِ صَراحةً، لكنَّهُ صنعَ الرَّمزَ، وأطلقَ الإشارةَ، وتَركَهُم للتِّيه،

وهو ما يَحدُثُ كثيراً في المجتمعاتِ؛ حيثُ يُصنَعُ الرَّمزُ، ويُركَّبُ الوَهمُ، ويُترَكُ النّاسُ يَنساقونَ خلفه.

إذًا، المُفسِدُ المُقنَّعُ أخطَرُ من المُفسِدِ الصَّريحِ؛ لأنَّه لا يُواجَه بل يُستقبل بحفاوة، ولا يُرفَضُ بل يُحتَفى به، وهو الذي يُربِكُ الإصلاحَ من داخله، ويُضعِفُ مُقاومةَ الفسادِ بإغراقِ النّاسِ في الشكِّ، أو التَّلاعبِ بالحَقائقِ، أو تَمويهِ الأخطاءِ. ولذلك، فإنَّ القرآنَ يُحذِّرُ من هذا النَّوعِ من المفسدين؛ لأنَّهُ أقدَرُ على التَّخفِّي وإلحاقِ الضَّرَرِ. والمُواجَهةُ معَه تكونُ بكَشفِ القناعِ، وتَوضيحِ المعيارِ، وإعادةِ ضَبطِ البوصلة.

ومن هنا، نَفهَمُ أنَّ مواجَهةَ الفسادِ لا يَنفَعُ فيها إلا تَمييزُ الخطابِ، وتَحليلُ الدَّوافعِ، وفَهمُ الرُّموزِ، فليسَ كلُّ مَن تكلَّمَ بالإصلاحِ مُصلِحًا، ولا كلُّ مَن تديَّنَ صادِقًا، ولا كلُّ مَن كتبَ مُفكِّرًا.

الفصل الثالث:

أنواعُ الإفساد -مَجالاتُ التَّخلخُلِ ونماذج التَّخريب-

■ المبحث الأوَّلُ:
الإفسادُ الخُلُقيّ والرُّوحيُّ -من النِّفاقِ إلى قلبِ المَعايير-

ذكرنا أكثرَ من مرّةٍ أنَّ الإفسادَ يَبدأُ من الدّاخلِ، لا من الخارجِ، وهكذا يُعلِّمُنا القرآنُ، وهكذا نَلمسُ في الواقعِ أنَّ أكبرَ التحوُّلات تَبدأُ من تغيُّرِ الضَّميرِ، وانحرافِ القلبِ، وضَعفِ البَصيرةِ. ولهذا، فإنَّ أوَّلَ أنواعِ الإفسادِ هو الإفسادُ الخُلُقيّ والرُّوحيُّ، ذلكَ الذي يُصيبُ الإنسانَ في وجدانِه، ونَواياهُ، وعلاقتِه بنفسِه وبالله، قبلَ أن يَظهَرُ في سُلوكِه.

حينَ يتحدَّثُ القرآنُ عن المُنافقينَ، فإنَّه يَبدأُ بجُملةٍ مُوجعة: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا**﴾ [البقرة: ١٠]. فالفسادُ هنا بَدأ من القلبِ والنِّيّة، ولم يبدأْ من الفعلِ والسُّلوكِ، فمرضُ القلبِ هو أصلُ الفسادِ الخُلُقيّ، وهو وإنْ كان لا يُرى ولا يُحاكَم عليه، لكنَّه يُنتِجُ الكذبَ، والغشَّ، والمُراءاةَ، والرِّيبةَ، والتَّلاعبَ، فحين يُصبحُ القلبُ مُعتادًا على المُوارَبة، فإنَّ كلَّ ما يأتي بعدَه يُصبحُ مَشوبًا بالتَّشويه.

النِّفاقُ، بحسبِ القرآنِ، حالةٌ روحيّةٌ مُتردِّيةٌ، يَعيشُ فيها الإنسانُ في

مَنطقة رَماديّة، لا يَعرفُ فيها الثَّباتَ، ولا يَطمئنُّ إلى الحَقيقة، يقول -تعالى-: ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ**﴾ [البقرة: ٩]، والمُخادَعةُ هنا تَعني أنَّ الإنسانَ يَعيشُ وَهْمًا، ويَتصوَّرُ فيه أنَّه قادرٌ على قلب المَعنى، وخداع الله، والتلاعب القِيَم. هذا النَّوعُ من الإفساد يَفتحُ البابَ واسعًا أمامَ قلب المَعايير؛ حيثُ يُصبحُ الباطلُ حقًّا حينَ يُجَمَّلُ، والحقُّ باهتًا حينَ يُحرَّفُ، ويُقدَّمُ الإثمُ على أنَّه شَجاعةٌ، وتُصوَّرُ الخيانةُ على أنَّها واقعيّةٌ، وتُروَّجُ الشَّهوةُ على أنَّها حريّةٌ، ويُدفَعُ بالصِّدق إلى زَوايا السَّذاجة. هذا هو الإفسادُ الذي يُمارَسُ بالكلمة لا بالسِّلاح، فلا يُفرَضُ بالقوّة، بل بالعادة، ولا يُعاني منهُ النّاسُ بوضوح، بل يتسلَّلُ إلى ضَمائرِهم، حتى يُصبحَ جُزءًا من تَربيتِهم وتَصوُّراتهم. ففي سورة النُّور، حينَ تحدَّثَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- عن حادثة الإفك، قال عَنِ الذينَ خاضوا فيها: ﴿**وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ**﴾ [النور: ١٥]، إنَّها الكلمةُ العابرةُ، التي تُقال بلا تَفكير، لكنَّها تُفسدُ الأعراضَ، وتُشوِّهُ الأرواحَ، وتُشوِّشُ على الحَقيقة، وهذا النَّوعُ من الإفساد يُمارسُه كثيرٌ من النّاس دونَ أن يَشعروا حينَ يَنمُّونَ، أو يُشوِّهونَ سمعةَ الآخَرينَ، أو يُحبطونَ النُّفوسَ، أو يُقلِّلونَ من شأن المَبادئ، أو يُمارسونَ الكذبَ «الأبيضَ»، أو يُغذُّونَ أولادَهُم بثَقافة «الذَّكاء المَغشوشِ»، أو يُربُّونَهم على أنَّ "الحياةَ لا تَمشي إلا بالتَّحايُلِ».

ومعَ الزَّمنِ، يُصبحُ المجتمعُ بيئةً خانقةً، تَختنقُ فيها القِيَمُ، وتَبهتُ فيها المَعاني، ويُربَّى فيها الأطفالُ على أنَّ الصِّدقَ عِبءٌ، والإخلاصَ سذاجةٌ، والكرامةَ عَبثٌ. ولهذا، فإنَّ أوَّلَ مُواجهةٍ للفسادِ تَبدأ من تَطهيرِ القلبِ، وهذا ما ركَّزَ عليهِ القرآنُ في تربيةِ (النبيِّ محمد) ﷺ، فقبل أن يُصلِحَ ﷺ الأمّةَ، أصلحَ اللهُ قلبَه، ورَبّاهُ على الصِّدق، والأمانة، والصَّبر، والصَّفح، والبَصيرة. وفي الآية المحوريّة: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، يُقصَد منهاُ أنّ الأساس هو التَّغييرُ الدّاخليُّ قبلَ التَّغييرِ الخارجيِّ، فحينَ يتغيَّرُ القلبُ، يتغيَّرُ العالَمُ. ومن هنا، فإنَّ الإصلاحَ الحقيقيَّ يَبدأُ بتَربيةٍ صامتةٍ للنَّفسِ، تُعيدُ للنيّةِ مَعناها، وللأمانةِ مَكانتَها، وللصِّدقِ احترامَه، وتُخرِجِ الإنسانَ من دوّامةِ الرِّياءِ، إلى نورِ الاستقامة.

■ المبحث الثّاني:
الإفسادُ الاجتماعيُّ والسِّياسيُّ -التَّفرقة، الهَيمنة، الاستكبار-

إذا كان الإفسادُ الخُلُقيّ يَبدأُ من النَّفس، فإنَّ الإفسادَ الاجتماعيَّ والسِّياسيَّ يَنتقلُ إلى الجماعة، ليُصيبَ العلاقاتِ والسُّلطةَ والعَدالة، وهو ما يَظهرُ في القرآن بوَصفِه إحدى أخطرِ صُوَرِ الفَسادِ؛ لأنَّه يُنتِجُ اختلالاً عامًّا يُفقِدُ المُجتمعَ تماسُكَه، ويُحوِّلُ الدَّولةَ من راعيةٍ إلى

آلة قَهر. وفي هذا النَّوعِ يُمارَس الإفسادُ باعتباره سلطةً، ويُلبَّسُ بثياب الحماية أو الإصلاحِ أو التَّنظيم.

تَبدأُ الصُّورةُ من تَقسيم النّاسِ إلى طبقات، وإثارةِ النَّعرات، وتَحويلِ المُواطنينَ إلى تابعينَ، ثم تُستكمَلُ بصناعةِ الخَوف، واحتكارِ القرارِ، وتَغليف الطُّغيان بشعارات الوطنيّة أو الأمنِ أو الدِّين.

يُقدِّمُ القرآنُ الكريمُ فرعونَ بوصفه نموذجًا لهذا النَّوعِ من الإفساد، ومُؤسِّسًا لمَنظومة تَخريب كاملة؛ حيث يقول -تعالى-: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٤].

في هذه الآية، تتجلَّى أركانُ الفسادِ السِّياسيِّ والاجتماعيِّ في خمسِ حركاتٍ مُتتابعة:

- العلوُّ: احتكارُ السُّلطةِ والهَيمنةُ المُطلَقة.
- التَّشييعُ: تَقسيمُ النّاسِ إلى جماعات مُتناحرةٍ، تُغذَّى بالحِقدِ والكراهية.
- الاستضعافُ: صناعةُ فئةٍ مَقهورةٍ يُعاد تَشكيلُها لتكونَ خاضعةً.
- العنفُ الدَّمويُّ: مُمارَسةُ الإرهابِ كوسيلة للسَّيطرة.
- التحكُّمُ في الأعراض والمُستقبلِ: إذلالُ النّاسِ في أهمِّ خصوصيّاتِهم.

هذه المنظومةُ، وفقَ الرُّؤيةِ القرآنيّة، لا تُنتجُ أمنًا أو عَدلاً، بل تُرسِّخُ الخوفَ والذُّلَّ، والأخطرُ أنَّها تُنتِجُ أجيالاً لا تَعرِفُ العَدلَ، ولا تتوقَّعُه، وتَراهُ ضَعفًا أو خَيالاً.

كما يكون الإفسادُ الاجتماعيُّ بالقَتلِ ونَحوِه من أساليبِ الإجرامِ، قد يكونُ بالتَّمييز، كما في قوله -تعالى-:

﴿**وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف: ٥٩]. يَتجاوز الظُّلمُ هنا مفهومِ ظُلم فردٍ لفَردٍ، ويَدلُّ على ظُلمٍ مُمنهجٍ، يَجعلُ مَجموعةً تَستأثِرُ، وأُخرى تُهمَّش، وفئةً تُسمَعُ، وأُخرى تُخرَس. وفي الواقعِ السِّياسيِّ، يتجلَّى هذا النَّوعُ من الفساد في: تَغييبِ المُشاركة، وكَتمِ الأصواتِ الحرّة، وتَوظيفِ الإعلامِ لتكوين وعيٍ زائف، وإصدارِ القَوانينِ لحِمايةِ الأقوياء، وإشغالِ النّاسِ بالنِّزاعاتِ الفرعيّةِ بَدلاً من القَضايا الجَوهريّة، إفراغِ المؤسَّساتِ من مَضمونِها وتَحويلُها إلى واجهات.

وفي هذا المناخِ، تموتُ القِيَمُ الأصيلةُ، وتُستَبدَلُ بأخرى، ويُستبدَلُ الحقُّ بالقوّة، والكرامةُ بالمَصلحة، والعَدلُ بالواقعيّة، والمَوقفُ بالتَّأقلُم.

وفي قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢]، يَظهرُ تَحذيرٌ واضحٌ من الطّاعةِ العَمياء، ومن اتِّباعِ مَن تَغلبُ على حركتِهم النَّزعةُ السُّلطويّةُ،

رغم مَظهرِهم النّاعم.

يَستدعي الإفسادُ السِّياسيُّ -بلا شكٍّ- الفسادَ الاجتماعيَّ ليَحميَه، فيُغذِّي الانقسامَ الطّائفيَّ، ويُشجِّعُ على النِّفاقِ المُجتمعيِّ، ويَشغلُ النّاسَ في حياتهم اليَوميّة، ليَصرفَهُم عن التَّفكيرِ في التَّغيير. وحينَ يُرهَق النّاسُ بهذا النَّوعِ من الفساد، يَعتادونَ العيشَ في "النَّجاة الفرديّة"، ويَغيبُ عنهم الأفقُ الجماعيُّ، وتُفقَدُ الثِّقةُ بأنَّ التَّغييرَ مُمكنٌ. ولهذا، فإنَّ مُواجهةَ الإفسادِ الاجتماعيِّ والسِّياسيِّ في القرآنِ تَبدأُ بإحياءِ قيمةِ الشَّهادةِ بالحقِّ، وتَحريرِ العقولِ من الخوف، وبناءِ وَعي جماعيٍّ لا يُخدَعُ بالشَّكلِ، وتَذكيرِ النّاسِ بأنَّ السُّكوتَ يُسهِمُ في البناءِ العكسيِّ للفَسادِ.

■ المبحث الثالث: الإفسادُ الاقتصاديُّ والبيئيُّ -الرِّبا، الغشّ، والتَّعدِّي على سُنن التَّوازن-

حينَ يُعيدُ القرآنُ تعريفَ الفسادِ، يتوسَّعُ فيه ليَشملَ اختلالاتٍ كُبرى تمسُّ حياةَ النّاسِ ومَعيشتَهم، ومن أوسعِ مَجالاته ما يَرتبطُ بالاقتصادِ والبيئة. فكلُّ تجاوزٍ لمَنظومةِ العَدلِ في حركةِ المالِ، وكلُّ إخلالٍ بنظامِ التَّوازنِ في الطَّبيعةِ، يُعدُّ إفسادًا في التصوُّرِ القرآنيِّ، سواء أكانَ ظاهرًا أم

خفيًّا، مباشرًا أم مُمَنهَجًا.

في القرآن، المالُ أمانةٌ تَدورُ في النّاسِ بميزان.

وحينَ يُفقَدُ هذا الميزانُ، يتحوَّلُ المالُ من وسيلةٍ للإعمارِ إلى أداةٍ للإذلال، ومن سَبيلٍ للكرامةِ إلى وسيلةٍ للهَيمنة. وهنا يَظهرُ الرِّبا بوصفه أحدَ أكثرِ أشكالِ الإفسادِ الاقتصاديِّ وُضوحًا؛ لأنَّه يَقلِبُ مَنطِقَ التَّبادُلِ إلى مَنطقِ استغلال.

يُنظَرُ إلى الرِّبا في القرآن على أنَّه عُدوانٌ يَستفزُّ العَدالةَ الإلهيّةَ، وليس مجرَّدَ خطأٍ ماليٍّ عابر. فيقول -تعالى-: ﴿**ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ**﴾ [البقرة: ٢٧٥]. لا تكمنُ المُشكلةُ في الرِّبا وحدَه، بل في الذِّهنيّةِ التي تُبرِّرُه، في تلكَ المُقارنةِ الماكرةِ بينَ البَيعِ والرِّبا، كأنَّ الاستغلالَ والتَّبادُلَ مُتشابهان. لكنَّ الرِّبا يُضيفُ إلى الدَين زيادةً على الزَّمن، أي إنَّه يُعاقِبُ الحاجةَ، ويُربِكُ دَورةَ المال الطَّبيعيّةَ، ويَمنحُ القوّةَ لمَن يَملكُ وحدَه.

وحينَ يَتكرَّسُ هذا النَّوعُ من التَّعامُلِ، يُعادُ تكوينِ العلاقاتِ بينَ النّاسِ على قاعدةٍ من الاستعلاء، لا التَّعاون، ويُصبحُ الغنيُّ أكثرَ غنًى، والفقيرُ أكثرَ ضَعفًا؛ وذلكَ لأنَّ القوانينَ صِيغَت لتَعمَلَ ضدَّ مَصلحته.

وفي هذا، لا يَعودُ المالُ وسيلةَ إعمار، بل أداةَ إفسادٍ مُمنهج.

وإلى جانبِ الرِّبا، يَبرُزُ الغِشُّ باعتباره أحدَ أخطَرِ نماذجِ الخللِ

الخُلُقيّ في التَّعامُلاتِ الاقتصاديّة، والذي يتجاوزُ ضررُه مُجرَّدَ الخَديعةِ العابرة، ويقومُ بطَمسِ الحقيقةِ في السُّوقِ، وتَزييفِ قيمةِ الشَّيءِ، وكَسرِ ثقةِ النّاسِ بعضِهم ببعضٍ.

في سورة المطففين، يقول الله -تعالى-: ﴿**وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ**﴾ [المطففين: ١-٣]، يُشير التَّطفيفُ هنا -مع نَقصِ الميزان- إلى الأنانيّةِ البنيويّةِ التي تَجعَلُ الإنسانَ يَطلُبُ النَّفعَ لنَفسِه، ولكنَّه يمنَعُ غَيرَه حَقَّه. وهذا المَنطقُ هو أساسُ الفسادِ الاقتصاديِّ: السَّعي الدّائم للرِّبح على حساب العَدل.

يُخلخِلُ الغشُّ الثِّقةَ التي تقومُ عليها السُّوقُ، ويُدخِلُ الشَّكَّ في العلاقاتِ التِّجاريّة، ويَجعلُ كلَّ بائعٍ مَوضِعَ ريبةٍ، وكلَّ مُشترٍ في حالةِ حَذرٍ دائم. وفي مُجتمعٍ يَتفشَّى فيه الغشُّ، تتحوَّلُ المُعاملاتُ إلى مَعارِكَ، ويَغيبُ الشُّعورُ بالأمانِ، وتَنتقِلُ التِّجارةُ من وسيلةٍ للبناءِ إلى مَساحةٍ للتَّلاعُب.

لكنَّ الفسادَ الاقتصاديَّ لا يَقفُ عندَ الرِّبا والغشِّ فقط، بل يَمتدُّ إلى الإسراف والتَّبذير وتَعطيلِ الميزان؛ حيث يُشير القرآنُ مرارًا إلى أنَّ الموارِدَ خُلِقَت بقَدَرٍ، وأنَّ التَّوازُنَ في استهلاكها شَرطٌ لاستمرارِ الحَياة، يقول -تعالى-: ﴿**وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا**﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]. ويُقصَدُ

من التَّبذيرُ هنا هو كلُّ استهلاكٍ يُفرِّغُ المادّةَ من مَعناها، ويُفرِّغُ النَّفسَ من المَسؤوليّة. وفي جانب البيئة، يَظهَرُ الفَسادُ حينَ يُستنزَف المَوردُ، ويُدمَّرُ الكائنُ، ويُلقَى بالنِّفاياتِ في البَحرِ أو الأرضِ، دونَ وَعيٍ بأَنَّ الطَّبيعةَ جزءٌ من أمانةِ الاستخلاف.

فالبيئةُ في القرآنِ هي شَريكٌ للإنسان، لا مُجرَّدَ خَلفيّة هامشيّة لوجوده، يقول -تعالى-: ﴿**وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ**﴾ [الحجر: ٢٢]. هذه الآيةُ تُذكِّرُ الإنسانَ بأنَّه ليس المُتحكِّمَ بكلِّ شَيءٍ، بل هو مُستَخلَفٌ على ما لا يَملِكُ، والفسادُ البيئيُّ يَبدأُ حينَ يَنسى الإنسانُ هذا المَوقعَ، ويُعامِلُ الطَّبيعةَ كأنَّها مُلكٌ شخصيٌّ، لا أمانةٌ جماعيّة.

وإذا عُدنا إلى الآيةِ المحوريّة، في هذا الكتاب، وجَدنا أنَّها تَجمعُ بينَ كلِّ هذه الأنواعِ من الفساد، وتَربطُها بفعلِ الإنسان: ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١]، فالبرُّ هو اليابسةُ: الاقتصادُ، والزِّراعةُ، والحياةُ اليوميّة. والبَحرُ هو وسيلة للانفتاحِ والتِّجارةِ والاتِّصال. والفسادُ ظهرَ مَحسوسًا، ولم يعدْ خَفيًّا، والسَّببُ هو ما كسبَت أيدي النّاس، فالإنسانُ فاعلٌ في التَّوازنِ كما هو فاعلٌ في الخَلَلِ، والكونُ يَتفاعَلُ معَه، على سبيلِ التَّذكيرِ لا الانتقام.

وهكذا، فإنَّ الإفسادَ الاقتصاديَّ والبيئيَّ هو في الدرجةِ الأولى ناتجٌ

عن نسيانِ المَوقعِ، وتَغييبِ الرَّقابةِ الدّاخليّةِ، وتَبريرِ الأنانيّةِ، وجَعلِ الرِّبحِ غايةً مُطلَقة.

لا يُقدِّمُ القرآنُ حُلولاً مُحاسبيّةً، بل يُعيدُ ترتيبَ الوَعي: بأنَّ المالَ أمانةٌ، والسُّوقَ مَسؤوليّةٌ، والطَّبيعةَ عَهدٌ، والتَّوازُنَ شَرطٌ للحياة. وبهذا الوَعي، يُعاد الاعتبارُ للعَلاقةِ بينَ الإنسانِ والعالَمِ، باعتبارها علاقةَ إعمار، لا علاقةَ استِهلاكٍ.

الفصل الرّابع:

النَّماذجُ القرآنيّةُ للمُفسدينَ -الأعيان التّاريخيّة والتّحققات الواقعيّة-

■ المبحث الأول:
فرعونُ وقارونُ وهامانُ – ثلاثيّةُ الفسادِ السُّلطويِّ والماليِّ والبيروقراطيّ-

حينَ نتأمَّلُ القرآنَ، بوَصفِه كتابًا للهدايةِ، نَراهُ يتجاوزُ طَرحَ المفاهيم الكبرى مثل «الفساد»، إلى تَجسيدِها في نماذجَ بشريّةٍ، فيَروي سِيَرَهم ليَكشفَ البنيةَ العَميقةَ للانحرافِ. ومن أبرزِ النَّماذجِ التي يَعرِضُها القرآنُ في هذا السِّياقِ: (فرعونُ)، و(قارونُ)، و(هامانُ). ثلاثُ شَخصيّاتٍ يَرتبِطُ بَعضُها ببعضٍ في قصّةٍ واحدة، لكنَّها تُجسِّدُ نماذجَ متكاملةً من الفسادِ، تمُثِّلُ السُّلطةَ والمالَ والإدارةَ، بوَصفِها أركانًا في بنيةِ الاستكبار؛ حيث إن (فرعونَ) الطّاغيةَ هو رمزٌ للعلوِّ السِّياسيِّ المُطلَق، يُقدِّمُه القرآنُ في مواقعَ مُتعدِّدة، ويُكرِّرُ اسمَه في سياقاتٍ مُختلفة، ليُشيرَ إلى أنَّ الاستبدادَ قد يتغيَّرُ وَجهُه، ولكنَّه لا يَموتُ، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾ [القصص:

٤]. العُلوُّ هنا في المَوقعِ، وفي النَّفسِ أيضًا؛ إذ تجاوزَ (فرعونُ) حدودَ المُلكِ التَّقليديِّ، وباتَ يَعتقدُ أنَّه مالكُ النّاسِ، حتى قال: ﴿**أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤].

فسادُه يَتجاوزُ الظُّلمَ، ليَبلُغَ مرحلةَ إعادةِ تَعريفِ الحَقيقةِ، حيثُ يُروِّجُ لنَفسه أنَّه رَبٌّ، ويُشكِّكُ في صِدقِ الرِّسالةِ، ويَستخدمُ العُنفَ لترَهيبِ كلِّ مَن يُهدِّدُ سُلطتَه، وبذلكَ يُصبحُ (فرعونُ) نَموذجًا للاستبدادِ المُتألِّهِ، الذي يُحاولُ اختطافَ الإلهِ من مَوقعِه ليَحلَّ مَحلَّه. وإلى جوارِ (فرعونَ) يَظهر (قارونُ) الطّاغيةُ، بوصفه صاحبَ ثَروةٍ هائلةٍ، الذي يمُثِّلُ الفسادَ الماليَّ؛ لأنَّه جعلَ المالَ حائطًا يَعزِلُ به نفسَه عن النّاسِ، وسلاحًا يَستعرضُ به سُلطانَه، يقول -تعالى-: ﴿**إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ**﴾ [القصص: ٧٦]، تتحدَّثُ الآيةُ عن البَغي بسبب المال، ولا تتحدَّثُ عن المال في ذاته، فالمالُ حينَ لا يُهذَّبُ بالبَصيرةِ يتحوَّلُ إلى غَطرسةٍ، وحينَ يُستخدَمُ لإذلالِ النّاسِ يُصبحُ أداةً للإفسادِ، وقد أنكرَ (قارونُ) فضلَ اللهِ، ورَدَّ النَّجاحَ إلى ذاته، فقال: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ**﴾ [القصص: ٧٨]، وهذه الجملةُ تُعبِّرُ عن مُنتهى الغُرورِ، وتَفكيكِ علاقةِ النِّعمةِ بالواهبِ، وقَطعِ الصِّلةِ بينَ الرِّزقِ والمَسؤوليّةِ.

أمّا النَّموذجُ الثالثُ فهو (هامانُ)، الذي لا يُعرف كثيرٌ عن تفاصيلِه خارجَ القرآنِ، لكنَّه يَظهر باعتباره ممثِّلًا لِما يمُكِنُ تَسميتُه بـ"الفساد

البيروقراطيّ"؛ حيث كان وَزيرًا، ورُبَّمَا مُهندسًا للنِّظام، يُنفِّذُ رؤيةَ (فرعونَ)، ويُديرُ آليات القَهر، يقول -تعالى-: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ**﴾ [غافر: ٣٦]، الصَّرحُ هنا يُجسّدُ البنيةَ التي يَصنعُها المُستبدُّ لتَثبيتِ وَهمه. يُقدِّمُ (هامانُ) العقلَ الإداريَّ الخادمَ للسُّلطةِ، لا للحَقيقة، فيُجمِّلُ القَمعَ، ويُصمِّمُ البنيةَ، ويُعطي الغِطاءَ للمُستحيلِ.

وبهذه الثُّلاثيّةِ – (فرعونَ)، (قارونَ)، و(هامانَ) – يَرسُمُ القرآنُ مَشهدًا مُتكاملاً للفَساد: سُلطةٌ مُتغطرسةٌ، ومالٌ مُنفلتٌ، وإدارةٌ مُبرمَجةٌ على تَنفيذِ الباطلِ. لا يَعملُ أحدُهُم وحدَه، وإنَّما يُكمِّلُ بعضُهم بعضًا، ويَصنعونَ مَعًا منظومةً مُتكاملةً تُنتجُ الإفسادَ وتُديمُه. ومن هنا، فإنَّ مواجهتَهُم لا تكونُ إلاّ بفَهمِ المَنظومة، وتَفكيكِ التَّواطُؤِ، وإعادةِ تَعريفِ الأدوار. والقرآنُ يَدعونا لاكتشافِ أثرِ (فرعونَ) حينَ يتكرَّرُ بأسماءٍ جديدة، ويَذكرُ (قارونَ)؛ لأنَّه جعلَ الثَّروةَ سَدًّا أمامَ العدالةِ، ويُبرزُ (هامانَ)؛ لأنَّه مُهندسُ الوَهم.

هؤلاء تَحقُّقاتٌ حيّةٌ، وليسوا مجرَّدَ رجالٍ في حلقاتِ التّاريخِ، ومَعرفتُهم تمنحُ الاستعدادَ لفَهمِ ما يَعيشُه الإنسانُ اليومَ من أشكالٍ مُتجدِّدة للفسادِ، تُمارسُ السُّلطةَ باسمِ الوطنِ، والمالَ باسمِ التَّنمية، والإدارةَ باسمِ الكفاءةِ، وهي في الحقيقةِ تُعيدُ إنتاجَ الظُّلمِ بهياكلَ جديدةٍ.

■ المبحث الثّاني:
إبليس والسّامريُّ – الفسادُ من داخل الخطابِ الدِّينيّ

في التَّجربةِ البشريّة، كما يَصوغُها القرآنُ الكريمُ، لا يَنحصرُ الفسادُ في الخارجينَ عن الدِّينِ أو المُناوئينَ للحقِّ عَلنًا، وإنَّما يَتسلَّلُ أحيانًا من داخلِ المَشهدِ الإيمانيِّ ذاته، عبرَ شخصياتٍ عايشَت الوَحيَ، أو عرفَت الحقَّ، لكنَّها انحرفَت عنه عَمدًا، أو التفَّت حولَه بنيّةِ التَّحايُلِ أو الاستكبار. ولعلَّ من أبرَزِ هذه النَّماذجِ في القرآن: (إبليس) و(السّامريّ). فكلاهُما لم يكن جاهلاً بالله، وكانَ حاضرًا في المَشهدِ الإلهيِّ، على مَقربةٍ من المُقدَّسِ، لكنَّهما اختارا أن يُحدِثا الخَللَ من الدّاخلِ، وأن يُنتجا إفسادًا رَمزيًّا له خُطورتُه المُتخفِّية.

لم يُنكِرْ (إبليسُ) -بحسبِ القرآن- وجودَ الله، ولم يُجادلْ في قُدرته، لكنَّه أبَى أن يَخضَعَ لأمره. ففي قوله -تعالى-: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢]، تكشفُ الآيةُ أنَّ المَفسدةَ الأولى في قلب إبليسَ إنَّما كانَت في تكبُّرِه الدّاخليِّ، في مَوازينِ التَّفاضُلِ التي ابتدعَتْها نفسُه، لا التي وَضعَها اللهُ. فـ(إبليسُ) لم يَعترِضْ على وجودِ الخالق، لكنَّه اعترَضَ على ترتيبِ الأوامر، واعتبرَ نفسَه أحقَّ بالكرامةِ من آدَمَ. وهنا تتجلَّى أوَّلُ مَلامحِ الفسادِ من داخلِ الدِّينيّ: أن تتحوَّلَ المَعرفةُ

إلى غُرورٍ، وأن يُستخدَمَ القُربُ من الله بوصفه مبرّرًا للتَّفوُّق الزّائف، وأن يُعادَ تأويلُ الأمرِ الإلهيِّ، لكي يُرفَضَ بقانون. كانَت النَّتيجةُ أن أُخرِجَ إبليسُ من حضرةِ الطّاعة، وتحوَّلَ من كائنٍ عابدٍ إلى رأس المُفسدينَ. وهذا التحوُّلُ كانَ بسبب التَّمادي في العِناد، والنِّيّة الخفيّة في قلبِ التَّرتيب. قال -تعالى-: ﴿**قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ**﴾ [الأعراف: ١٦]. أي إنَّ إبليسَ قرَّرَ أن يَجعلَ من ذاته مُعطِّلاً للطَّريق، وأن يُمارسَ الإفسادَ كمُهمّةٍ مُتواصلة، من داخلِ السِّياق الدِّينيّ، وعلى الطَّريقِ المُستقيم ذاته، لا في طريقِ الباطل.

أمّا (السّامريُّ) فهو نموذجٌ من نَوعٍ آخَر، كانَ من قوم (موسى)، يَسيرُ معَهم في رحلةِ النَّجاة، ويَشهدُ المُعجزات، ويَعرفُ النبوّةَ، لكنَّه صنعَ لهم عِجلاً، وجعلَهم يَعبدونَه. يقول -تعالى-: ﴿**فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ [طه: ٨٨]. ولم يتوقَّف الأمرُ عندَ صناعةِ الرَّمز، بل قدَّمَه بلغةٍ فيها التباسٌ مَقصودٌ، خلطَ فيها بينَ الغيابِ المُؤقَّت لـ (مُوسى) وبينَ الغيابِ المُطلَقِ للإله، فأوقعَهم في فتنةٍ رَمزيّةٍ مُركَّبة. لم يَطلُبْ (السّامريُّ) صراحةً تَغييرَ الدِّين، وإنَّما صنعَ بَديلاً يُشبهُ الحَقيقةَ شَكلاً، ويُفسدُها جَوهرًا. وجوهرُ الفسادِ هنا يَكمُنُ في استغلالِ حاجةِ النّاسِ إلى المُقدَّس، لتَقديمِ صَنمٍ على أنَّه امتدادٌ للوَحي. فالنّاسُ كلُّ ما فَعلوهُ أنَّهم تَصوَّروا أنَّ هذا العجلَ هو "إله موسى"، وأنَّ (مُوسى) نَسِيَ، أو تأخَّرَ، أو غابَ، فجاءَ البَديلُ. وهنا

مَكمنُ الخُطورة: حينَ يُقدَّمُ الفسادُ بلغة الاستمرار، والتَّكامُل، والسَّدِّ لفراغ النبوّة. فـ(السَّامريُّ) -وإن كان مُجرَّدًا من السُّلطة السِّياسيّة- لكنَّه يمتلكُ مَهارةَ التكوين الرَّمزيّ، والقُدرةَ على تَحويلِ الذَّهب إلى وَثن، وتَحويلِ التَّوق الرُّوحيِّ إلى مَسلك زائف. وفي هذا المَوقف، يتجلَّى الإفسادُ الرَّمزيُّ في أعلى درجاته؛ إذ يُفرِّغُ الرِّسالةَ من الدّاخِل، ولا يَطلبُ تَغييرَها، ويُقدِّمُ بَديلاً وَهميًّا للنبوّة، دونَ أن يَعترِضَ عليها.

ولذلك، فإنَّ (موسى) عندَما عادَ ورأى ما حدثَ، واجَهَ (السّامريَّ) بالاستنطاق الرَّمزيِّ، وليس بالاتِّهام السِّياسيّ، وقال له: ﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ**﴾ [طه: ٩٥]، يدلُّ الخَطْبُ هنا على أمر خطير، غير ظاهر تمامًا، ليأتيَ ردُّ السّامريِّ: ﴿**بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى**﴾ [طه: ٩٦]، وهو اعترافٌ مُزدوجٌ: بالبَصيرة الخاصّة، وبالانزلاق الذاتيِّ، وبأنَّ التَّزييفَ جاءَ من داخل النَّفس، لا من ضَغط خارجيّ.

إذًا، (إبليسُ) و(السّامريُّ) هما رَمزان لتجلِّيات الفساد حين يَنطلقُ من داخلِ المُقدَّس، فالأوَّلُ رفضَ السُّجودَ بدَعوى الأفضليّة، والثّاني صاغَ بَديلاً باسم الغياب، كلاهُما اشتغلَ على المَعنى، فضلاً عن اشتغاله على الصورة، وكلاهُما قدَّمَ للفساد عباءةً دينيّةً، تُغري النُّفوسَ الباحثةَ عن الطمأنينة، لكنَّها تُسلمُها إلى التِّيه.

من هذا المَبحث، يَتبيَّنُ أنَّ الفسادَ الأخطرَ إنَّما يأتي من الذينَ

يَعرفونَ الخطابَ، ويُتقنونَ لغتَه، لكنَّهم يَتلاعبونَ به، وأنَّ إصلاحَ الخطابِ الدِّينيِّ لا يتطلَّبُ فقط مُحارَبةَ الإلحادِ أو الانحرافِ العَلنيِّ، وإنَّما كشفَ التَّحريفِ المُقنَّعِ، وتَحصينَ النَّفسِ من التَّأويلاتِ الزّائفةِ، ورَبطَ الدِّينِ دومًا بالحقِّ، لا بالسُّلطةِ أو الهَوى أو المَصالحِ الشخصيّة.

■ المبحث الثالث:
المُفسدونَ من قوم الأنبياءِ عليهم السلام – تَعطيلُ الرِّسالةِ من قلب المُجتمعِ الرِّساليّ-

حينَ يُرسِلُ اللهُ نبيًّا إلى قومِه، فإنَّ رسالتَه لا تَصطدمُ -ابتداء- بالخُصومِ البَعيدينَ، ولا بالحضاراتِ المُجاورةِ، بل تُواجِهُ المُقاومةَ الأولى من داخلِ قَومِه الذينَ يَعرفونَه، ويَعيشونَ معَه، ويَشتركونَ معَه في اللِّسانِ والتّاريخِ والأرضِ. تكشفُ هذه المُفارقةُ عن طبيعةٍ عميقةٍ في بنيةِ الإفسادِ: أنَّ العائقَ الأوَّلَ أمامَ التَّغييرِ هو الأُنسُ بالعادةِ، والقريبُ الذي يَخشى فقدانَ امتيازاتِه أو تَغييرَ نمطِ حياتِه.

يَعرِضُ القرآنُ الكريمُ نماذجَ مُتعدِّدةً لأقوامِ الأنبياءِ عليهم السلام، الذين كانوا هم أنفسُهم صانعي الإفسادِ؛ لأنَّهم -فضلاً عن كُفرِهم- عطَّلوا الرِّسالةَ في مَهدِها، واستخدموا آلياتٍ اجتماعيّةً ونفسيّةً وثقافيّةً لإخمادِ النُّورِ

القادم من داخلِهم. لم تكن المُشكلةُ أنَّهم لم يَسمَعوا، وإنَّما كانت في أنَّهم سَمِعوا ورَفضوا؛ لأنَّ السَّمعَ الحقيقيَّ يتطلَّبُ استعدادًا داخليًّا للتَّجاوُب، لا مُجرَّدَ تلقِّي الصَّوت.

نَرى هذا النَّموذجَ جَليًّا في قصّةِ (نوح) ﷺ، يقول -تعالى- عن قومِه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]؛ حيث أتى الردُّ على نبيّ الله (نوح) ﷺ من «المَلأ»، أي الطَّبقةِ المُتنفِّذةِ داخلَ المُجتمع، الذينَ يَرَونَ في الرِّسالةِ تَهديدًا حقيقيًّا لمكانتِهم، ولم يأتِ من خُصومٍ خارجيِّينَ. فأعرضوا عن مناقشةِ فكرةِ التَّوحيد، وتوجَّهوا إلى وصفِ النبيِّ بأنَّه ضالٌّ، كأنَّهم يَملكونَ معيارَ الحَقيقة، ويَملكونَ تَفويضًا بإقصاءِ المُختلف. ثم يُضيفُ اللهُ عن حال قوم (نوح): ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، فيتجلَّى هنا الفسادُ بوَجهه الاجتماعيِّ: ربطِ الإيمانِ بالطَّبقةِ الاجتماعيّة، وتَقويمِ الرِّسالةِ بناءً على أتباعِها، لا على جَوهرِها؛ إذ إنَّهم لا يَرفضونَ الرِّسالةَ لمُحتواها، وإنَّما يَرفضونَها لأنَّ الذينَ تَبِعُوها لا يَليقونَ - في أعيُنِهم - بأنْ يكونوا أُمَناءَ على الحَقيقة، وهذا يُظهرُ إحدى آلياتِ الإفسادِ: إعادةِ تكوينِ القيمةِ عبرَ معيارِ المكانة، لا معيارِ الصِّدق.

وفي قَصّةِ (صالحٍ) ﷺ، نَرى نوعًا آخرَ من التَّعطيل؛ حينَ أرسلَ اللهُ

النّاقةَ آيةً لقومه، جاءَ رَدُّهُم بفعلٍ تَخريبيٍّ، وليسَ بتكذيب الآية فقط، قال تعالى: ﴿**فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٧]، انتقلَ الفسادُ هنا من التَّشكيك إلى التحدِّي، ومن السُّؤال إلى الجَريمة، وقد اشتركَ فيه القومُ، عبرَ التَّواطُؤِ أو الصَّمتِ أو المُشاركة، وهو ما يَجعلُ المَسؤوليّةَ جماعيّةً.

أما في قصّة (شُعيب) عليه السلام، فإنَّ الإفسادَ جاءَ باسم السُّوق والتِّجارة، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا**﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ حيث يَظهَرُ فسادٌ اقتصاديٌّ مُوغِلٌ في تفاصيلِ الحياة، يَستخدِمُ الميزانَ ليُخفيَ الظُّلمَ، ويَستعمِلُ البيعَ ليُمارسَ الغِشَّ، وذلك كلّه باسم التَّبادُلِ المَشروع، وقد واجَهَ (شعيبٌ) مقاومةً شديدةً؛ لأنَّ دعوتَهُ تُهدِّدُ مصالحَ اقتصاديّةً رسَّختْها النُّخَبُ عبرَ سنوات.

وهكذا، تتكرَّرُ الصُّورةُ مع كلِّ نبيّ:

- قومُ (إبراهيمَ) يَرجمونَه، رُغمَ أنَّه منهم.
- قومُ (لوطٍ) يَصِفونَ رسالتَه بالشُّذوذِ في العُرف.
- قومُ (مُوسى) يَعبدونَ العجلَ بعدَ المُعجزة، لا قَبلَها.
- (بَنو إسرائيلَ) يُطالبونَ (موسى) بإلهٍ كما للنّاسِ آلهةٌ، ويُعاندونَ الوَصايا وهم يَشهدونَ الوَحيَ.

تُبيِّنُ هذه النَّماذجُ أنَّ الفسادَ داخلَ المُجتمعِ الرِّساليِّ يَتجاوزُ التَّكذيبَ النَّظريَّ، إلى تعطيلٍ عَمليٍّ للرِّسالةِ عبرَ أدواتٍ ثقافيّةٍ مألوفة: رفضُ الجديدِ باسمِ العادة، ومحاربةُ التَّغييرِ باسمِ الواقعيّةِ، والهجومُ على الدّاعينَ باسمِ الخوفِ على الجَماعة.

إنَّ أخطرَ ما في المُفسدينَ من قومِ الأنبياءِ أنَّهم يَملكونَ سُلطةَ الأعراف، ويتَّكئُونَ على الذّاكرةِ الجَمعيّة، ويُخيفونَ النّاسَ من الغَريبِ، في حينِ أنَّ الرِّسالةَ خرجَت من داخلِهم.

يَروي القرآنُ هذه القصَصِ للتَّحذيرِ من أنَّ المُفسدينَ ليسوا دائمًا من خارجِ الأمّة، وأنَّ الطَّريقَ إلى النُّورِ قد تُعطِّلُه وجوهٌ مألوفةٌ، وأنَّ أقربَ النّاسِ إلى الحقِّ قد يكونونَ أوَّلَ المُعارضينَ له؛ لأنَّ الرِّسالةَ، كما تُربكُ خصومَها، تُقلقُ حُرّاسَ التَّقاليد، وتُهدِّدُ المُستفيدينَ من الرُّكودِ، وتَسحبُ من النُّخبةِ امتيازَ التَّأويلِ الأحاديِّ للحَقيقة.

في ضوءِ هذه النَّماذجِ، نَفهمُ أنَّ الإفسادَ لا يُقاسُ بالعَداوةِ الظّاهرة، وإنَّما يُقاسُ بالقَلبِ المَعنويِّ للمُجتمع، وبمَن يَرفضُ الرِّسالةَ بحُججٍ "الواقعيّة"، أو "الأمن الاجتماعيّ"، أو "الهويّة»، وهو في الحقيقةِ يُفرِّغُ الرِّسالةَ من مُحتواها، ويُبقي الشَّكلَ فقط، لِيَبدوَ الإيمانُ مَوجودًا، على حين يُسجَن النُّورُ في قوالبِ العادةِ والخَوف.

■ المبحث الرابع:
الامتداداتُ المعاصرةُ للنَّماذج القرآنيّة – فرعون وقارون وهامان وإبليس والسّامري في السِّياق الغربيّ

حينَ يَعرضُ القرآنُ النَّماذجَ الكُبرى للمُفسدينَ، فإنَّه لا يُقدِّمُها باعتبارها تجاربَ متقطّعةً، وأسماءً عابرةً، بل يُقدِّمُها رموزًا حيّةً يُمكِنُ أن تتكرَّرَ في كلِّ زمان أو مكان كلَّما توفَّرَت الظُّروفُ، وتكرَّرَت البنى الذِّهنيّة. وهذا يَعني أنَّ (فرعونَ) لم يمَتْ، و(قارونَ) لم يَندثِرْ، و(هامانَ) لم يتوقَّفْ تأثيرُه بانتهاءِ سُلطانه. إنَّ هذه النماذج من الإفسادِ ما تَزالُ تُعيد إنتاجَ نفسِها بوجوهٍ مُعاصِرةٍ. والعالَم اليومَ، وفي مقدِّمته القُوى الغربيّةُ الكبرى، يُجسِّدُ في كثيرٍ من جوانبه امتداداتِ هذه النَّماذجِ، وإن غيَّرَت لغتَها ووسائلَها.

لا يَحكُمُ فرعونُ المُعاصِرُ من عرشٍ ذَهبيٍّ، ولا يَرفعُ صوتَه قائلاً "أنا ربُّكُم الأعلى"، لكنَّ خطابَه السِّياسيَّ يَحملُ المَنطقَ الفرعونيَّ نفسَه: هَيمنةٌ مُطلَقةٌ باسم "المَصلحة الوطنيّة»، واحتكارٌ للقرار باسم "الأمن القوميّ»، وتدخُّلٌ عابرٌ للقارّات باسم "نشر الدِّيمقراطيّة»، واستخدامٌ هائلٌ للقوّة العسكريّة والنّاعمة من أجلِ إخضاعِ الشُّعوبِ الضَّعيفة.

في السِّياسة الغربيّة، خاصّةً في أميركا، نجدُ تمظهُرًا حَديثًا للنَّزعة الفرعونيّة التي تَرى نفسَها مركزَ العالَم، وتَعتبرُ أنَّها الأجدَرُ في وَضعِ

القوانينِ وتَوزيعِ الأدوارِ وفرضِ النَّماذجِ، والحربُ على الدُّولِ، وإسقاطُ الحكوماتِ، وتَجويعُ الشُّعوبِ عبرَ العُقوباتِ. هذه كلُّها وسائلُ لإنتاجِ نسخةٍ جديدةٍ من فرعونَ.

أمّا قارونُ المُعاصِرُ، فقد تمدَّدَ داخلَ النِّظامِ الرأسماليِّ، الذي يَحتفي بالثَّروةِ بوَصفِها المِعيارَ الوحيدَ للنَّجاحِ؛ حيث تتحكَّمُ شركاتٌ عملاقةٌ في مصائرِ الاقتصادِ العالَميِّ، ويَملك أفرادٌ ثَرواتٍ تَفوقُ ميزانيّاتِ دُوَلٍ، وتُبنى أسواقٌ على المُضارَبةِ والاحتكارِ، ومَشهدٌ عامٌّ يُعيدُ إنتاجَ قارونَ، الذي يَظنُّ أنَّ ما عندَه هو ثمرةُ استحقاقٍ ذاتيّ: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**﴾ [القصص: ٧٨].

يُطِلُّ نَموذجُ (قارونَ) اليومَ عبرَ لغةٍ برّاقةٍ: ريادة الأعمال والابتكار، والسُّوق المَفتوحة، لكنَّه يُخفي خلفَه: استغلالاً للعُمّالِ، وتَدميراً للبيئةِ، وشِراءً للقَراراتِ السِّياسيّةِ.

لقد تحوَّلَت الثَّروةُ في النِّظامِ الغربيّ من وسيلةٍ إلى عبادةٍ، ومن أداةٍ إلى غايةٍ، وصارَ الأغنياءُ بمَثابةِ آلهةِ العَصرِ الحَديثِ؛ حيث يرتكزُ الخطابُ العامُّ حولَهم، وتُكتَبُ القِصصُ لتَلميعِهم، ويُرسَمُ النَّجاحُ على صورتِهم.

أمّا هامانُ المُعاصرُ، فيُطِلُّ عبرَ البيروقراطيّاتِ الدَّوليّةِ، ومَراكزِ التَّخطيطِ الاستراتيجيِّ، والمُنظَّماتِ التي تَشتغلُ خلفَ السِّتارِ، وتَضعُ السِّيناريوهاتِ، وتُهندِسُ العُقولَ، وتُديرُ العالَمَ عبرَ شبكاتِ الإدارةِ

الذَّكيّة والمُراقبة الدَّقيقة. إنّ هامانَ لا يُقرِّرُ، لكنَّه يُبرمجُ القرارَ، ولا يتصدَّرُ، لكنَّه يُصمِّمُ السَّقفَ الذي تتحرَّكُ تحتَه السِّياساتُ، وهو العقلُ الأداتيُّ، الذي يُنتجُ النَّماذجَ الكُبرى للسَّيطرة، ويَضعُ لكلِّ شيءٍ "آليّةً" و"تَصنيفًا" و"خطّةً خمسيّةً".

يُطِلُّ هامانُ اليومَ من خلال المُنظَّمات العابرة للحُدود، التي تَملكُ حقَّ تَقويم الأنظمة التَّعليميّة والصِّحيّة والاقتصاديّة، وتَفرضُ ما يَجب وما لا يَجب، وتُعيدُ تَعريفَ "التقدُّم"، و"التخلُّف"، و"النَّجاح"، و"الفشل" بمَنطقٍ تِقنيٍّ لا يَرحَمُ، ويَنظرُ إلى المُجتمعاتِ باعتبارهم أرقامًا لا أرواحًا.

أمّا إبليسُ المُعاصرُ، فهو لا يَحتاجُ إلى ظُلمةٍ كي يتسلَّلَ، وإنَّما يَعملُ من قلبِ المؤسَّساتِ الثَّقافيّة والإعلاميّة عبرَ بَثِّ الشُّبهات، وتَفكيكِ القِيَم، وجَعلِ كلِّ شيءٍ نسبيًّا، وإفراغِ المَعنى من مَضمونه؛ ليَعيشَ الإنسانُ في غابةِ التَّأويلات، دونَ يَقينٍ ولا بوصلة. لا يَطلُبُ إبليسُ المُعاصرُ منكَ أن تكفُرَ، بل أن تُشكِّكَ، وأن تتوقَّفَ عن طلبِ الحَقيقة، وأن تَعتبرَ كلَّ القيَم قابلةً للتَّفاوُض، وأن تَرى في الثَّبات نَوعًا من التخلُّف أو العَجز. إنَّه لا يتكلَّفُ طَرحَ البَدائلَ، بل يُغرِقُ الوَعيَ في الضَّباب.

والسَّامريُّ الحَديثُ، هو الذي يُقدِّمُ للنّاسِ رُموزًا بَديلةً عن الإيمان، ويَصنعُ لهم "عُجولًا" حَديثةً: شاشاتٍ مُضيئةً، ونُجومًا لامعةً، ورُموزًا

ثقافيّةً تُعبَدُ دونَ وَعي تمُلأ بها القلوبُ، وتُرسَمُ بها التَّطلُّعاتُ، وتُستهلَكُ كأنَّها المَعنى نفسُه.

يُعيدُ السّامريُّ اليومَ -بدلَ مُواجهةِ الدِّينِ- صياغتَه على مقاسِ الاستهلاكِ، ويَنحتُ إيمانًا ناعمًا، بلا مسؤوليّة، ويُقدِّمُ الرُّوحانيّةَ بوصفها منتجًا يَصلحُ لكلِّ الأذواقِ، ويُحوِّلُ المُقدَّسَ إلى ترفٍ فكريٍّ أو تَجربةٍ شَخصيّةٍ مَعزولةٍ عن التحوُّلِ الاجتماعيّ أو الالتزامِ الخُلُقيّ.

وهكذا، حينَ نَنظرُ إلى العالَمِ المُعاصِرِ، نُدركُ أنَّ النَّماذجَ القرآنيّةَ ليسَت حكاياتٍ تُراثيّةً، وإنَّما هي خرائطُ حَيّةٌ نَفهَمُ بها الواقعَ، ونُحدِّدُ بها صور الفسادِ المُعاصِرِ، ونُبصِرُ بها جوهرَ المَعركةِ؛ إذ لم يغب فرعونُ، وقارونُ، وهامانُ، وإبليسُ، والسّامريُّ، وإنّما يَرتدونَ أقنعةً جديدةً، يُخاطِبونَ بها العقلَ المُعاصِرَ، ويُديرونَ بها شبكاتِ الهَيمنةِ، على حين يَتوهُ الكثيرونَ عن الأسماءِ، ويَغفلونَ عن البِنى.

الفصل الخامس:

أهداف المُفسِدِ -الهَيمنة، التفَّكيك، إخضاع الوَعي-

■ المبحث الأول:
السَّيطرة على الإنسان - من الاستعبادِ العلنيّ إلى الاستلابِ النّاعمِ-

لا يُمارَس الفسادُ عَبثًا، إنَّه يُمارَسُ عن وَعيٍ وغايةٍ، فهو ليسَ سلسلةَ أخطاءٍ فرديّةٍ متراكمةٍ، وإنّما هو مَشروعٌ له أهدافٌ واضحةٌ، وأوَّلُ هذه الأهدافِ - وأكثرُها مَركزيّةً - هو السَّيطرةُ على الإنسان: على جسده، ووَعيه، وخياراته، وخياله، وتصوُّراته عن نفسه والعالَم. هذه السَّيطرةُ هي مفتاحُ مَشروعِ الإفسادِ؛ لأنَّها تضمَنُ خضوعَ الفردِ للمَنظومةِ، وتَحويلَه من كائنٍ حرٍّ إلى أداةٍ داخلَ شبكةٍ.

تَبدأُ السَّيطرةُ على الإنسانِ في المَنظورِ القرآنيِّ، من تَحويله من غايةٍ إلى وَسيلة، حينَ يُصبحُ الإنسانُ مُجَرَّدَ تابعٍ، أو مُستهلكٍ، أو رَقمٍ، أو مَوضوعٍ لتَجربةٍ، يَفقدُ جوهرَه بصفته خليفةً في الأرض. وهذا ما مارسَه (فرعونُ) حينَ قال لقومه: ﴿**مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩]، فالتَّحكُّمُ هنا يكونُ

باحتكارِ الرُّؤيةِ، فلا يُسمَحُ للنّاسِ أن يَرَوا أو يَختاروا، فهناكَ مَن يَرَى ويَختارُ لَهم.

ومنَ السَّيطرةِ العَنيفةِ التي تمُارسُها الأنظمةُ القَمعيّةُ، إلى السَّيطرةِ النّاعمةِ التي تُنتجُها الثَّقافةُ، والإعلامُ، والاقتصادُ، تتعدَّدُ الأدواتُ لكنَّ الهدفَ يَبقى واحدًا: تَدجينُ الوَعي البَشريّ، ونَزعُ طاقتِه على النَّقدِ، وإخمادُ رغبتِه في التحرُّر.

في زمنِ الاستعبادِ القديمِ كانَت الأصفادُ من حَديدٍ، أمّا في عالَمِ اليوم، فالقيودُ من وَهمٍ وسَراب: أفكارٌ تُزرَعُ على أنَّها حَقائقُ، ورغباتٌ تُغرَسُ كأنَّها اختياراتٌ، وأحلامٌ تُسوَّقُ كأنَّها تجلِّي الذّات، لكنَّها في حقيقتِها مَساراتٌ مَحسوبةٌ، مُبرمَجةٌ، تُنتجُ بَشرًا مُنمَّطينَ.

تَعمل السَّيطرةُ الحَديثةُ على إفراغِ الفردِ من الدّاخلِ، بإغراقِه في أجوبةٍ جاهزة، وبمَلءِ حياتِه بالضَّجيجِ، حتى لا يعودَ لديهِ وقتٌ للتأمُّلِ، أو قُدرةٌ على التَّمييز. فيُحذِّرُ القرآنُ من هذا النَّمطِ من التَّسلُّطِ، حينَ يُشيرُ إلى التدرُّجِ في الإضلال، فيقول عن إبليسَ: ﴿**لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ**﴾ [الأعراف: ١٦]، ثم يُكملُ: ﴿**ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ**﴾ [الأعراف: ١٧]. هذه الإحاطةُ تتجاوزُ حدودَ الجسد، وتُحاصِرُ الخيالَ والمَعرفةَ والرُّؤية؛ بحيثُ لا يَعودُ الإنسانُ قادرًا على

الخروجِ من الدّائرةِ المفَروضةِ عليه. ولعلَّ من أخطَرِ نماذج السَّيطرةِ اليومَ ما يُمارَس باسم الحريّةِ نفسِها، حينَ يُدفَعُ الإنسانُ إلى تبنِّي نمطِ حياةٍ مُعينٍ، يُباعُ له على أنَّه اختيارُه، وهو في الحقيقةِ جزءٌ من سلسلةٍ دعائيّةٍ ضَخمة، تُصمِّمُ أذواقَ الإنسان، وترتّب اهتماماته، وتُعيد تعريفَ نجاحه وسعادته.

وهنا، يتحوَّلُ الفسادُ إلى مشروعٍ ناعمٍ، يُؤسَرُ فيه الإنسانُ بوَسائلِ الرّاحةِ، ويُحبَسُ في قفصٍ ذهبيٍّ من الاستهلاك، والسَّطحيّةِ، واللَّهوِ المُمَنهج. ولهذا، فإنَّ تحريرَ الإنسان، في التصوُّرِ القرآنيِّ، يَعني تحريرَ وعيه من الزَّيف، ووجدانه من التبلُّد، ومُخيِّلته من التَّوجيه القسريّ. فالإنسانُ الذي لا يَسأل، ولا يُميِّزُ، ولا يَرفض، هو الإنسان الذي يُناسبُ المُفسدينَ؛ لأنَّه لن يُعكِّرَ صفوَ النِّظام، ولن يُقلِقَ التَّراتُبيّةَ، ولن يُعيدَ تَعريفَ المُمكن.

من هنا، كانَت الرِّسالاتُ الإلهيّةُ -في جَوهرها- مَشاريعَ لتَحرير الإنسان من سَيطرةِ الإنسان، كما قال (مُوسى) لـ(فرعون): ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ**﴾ [طه: ٤٧].

وكما قالَ (النبيُّ محمَّد) ﷺ: "قُولُوا لا إلهَ إلا اللهُ تُفلحوا»؛ لأنَّ التَّوحيدَ هنا نَفيٌ صارمٌ للسُّلطة المُطلَقة عن غيرِ الله، وتفكيكٌ لكلِّ شبكاتِ القَهرِ المُغلَّفةِ باسمِ السُّلطةِ أو المالِ أو العادة.

■ المبحث الثّاني:
تَفكيك البنى الجَماعيّة -من تمَزيقِ المُجتمعاتِ إلى تَشويهِ الانتماء-

إذا كان هدفُ المُفسِد الأوَّلُ هو إخضاعَ الفردِ وسَلبَه وَعيَه، فإنَّ هدفَه الثّاني لا يَقلُّ خُطورةً، ويُعدُّ امتدادًا طبيعيًّا للأوَّل: تَفكيك البنى الجَماعيّة. فالمُفسِدُ يُدركُ أنَّ الإنسانَ الحرَّ قد يُقاومُ، لكنَّ الإنسانَ المُحاطَ بجَماعة واعية ومُتماسكة يُصبحُ أشدَّ صَلابةً في وجهِ الإفساد. ولذلكَ، يَسعى دَومًا إلى تَفتيتِ الأواصرِ التي تشدُّ النّاسَ بعضَهُم إلى بعضٍ، سواء أكانَت تلكَ الأواصِرُ دينيّةً أم اجتماعيّةً، أم خُلُقيّةً، أم وطنيّةً.

فالمُجتمعُ المُتماسكُ عائقٌ في وجهِ الظُّلم، أمّا المجتمعُ المُفكَّكُ فخَصمٌ سَهلٌ، يُمكِنُ تَمريرُ كلِّ شيءٍ فيه تحتَ شعاراتِ الفردانيّةِ أو التحرُّر أو الحَداثة.

يُشيرُ القرآنُ الكريمُ إلى هذا النَّمطِ من الإفسادِ في وَصفِه لـ(فِرعونَ)، الذي لم يَكتفِ بالعُلوِّ، وراحَ يُقسِّمُ النّاسَ شِيَعًا، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ**﴾ [القصص: ٤]، يَكشفُ النَّصُّ هنا أنَّ أوَّلَ خطوةٍ للاستبدادِ هي تقسيمُ المجتمعِ، وتَحويلُه إلى جماعاتٍ مُتنازِعةٍ، يُراقِبُ بعضُها بعضًا،

ويخافُ بعضُها من بعضٍ، وتَتربَّصُ بكلِّ مَن يَخرجُ عن القطيعِ؛ إذ لا تَحتاجُ الفرعونيّةُ إلى سجنٍ ضَخمٍ بقَدرِ ما تَحتاجُ إلى تَفكيكٍ داخليٍّ؛ لأنَّ المُجتمعَ المُنقسمَ يَنشغلُ بذاتِه، ويَفقدُ قدرتَه على التَّغييرِ.

تتجلَّى هذه الرؤية في السِّياقِ المُعاصرِ، من خلالِ سياساتِ تَقسيمِ المُجتمعاتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، سواءً عبرَ العِرقِ، أو الطّائفةِ، أو الجغرافيا، أو اللُّغةِ، أو حتى الميولِ الفكريّةِ والعاطفيّةِ؛ إذ لم يَعُدِ التَّقسيمُ مَفروضًا من الخارجِ، بعدَ أن أصبحَ يُعادُ إنتاجُه من داخلِنا، عبرَ خطابٍ إعلاميٍّ، وتَعليمٍ مُوجَّهٍ، ونقاشاتٍ مَشبوهةٍ، كلُّها تُعيدُ النّاسَ إلى دوائرَ ضيِّقةٍ، يتمُّ فيها التَّناحُرُ باسمِ الهويّةِ، وتُمرَّرُ مشاريعُ السَّيطرةِ باسمِ "التعدُّدِ»، ويُفرَّغُ الانتماءُ الوطنيُّ أو الإيمانيُّ من مَعناهُ باسمِ "التحرُّرِ من الانغلاقِ".

هذا النَّمطُ من الإفسادِ غالبًا ما يُغلَّفُ بلغةٍ حداثيّةٍ؛ حيثُ يُوصَفُ كلُّ انتماءٍ أصيلٍ بالتَّقليدِ، وكلُّ رابطٍ دينيٍّ أو قِيَميٍّ بالتخلُّفِ، ويُزرَعُ في النُّفوسِ أنَّ الارتباطَ بالجماعةِ يُهدِّدُ الحرّيةَ، وأنَّ الأمانَ الحَقيقيَّ في الفردانيّةِ المُطلَقةِ.

وحينَ يتحقَّقُ هذا التَّمزيقُ، يُصبحُ من السَّهلِ على المُفسِدينَ أن يُديرُوا المُجتمعاتِ كما تُدارُ الأسواقُ:

كلُّ فئةٍ تُستهدَفُ بما يُناسبُها، وتُقسَّمُ الرَّسائلُ الإعلاميّةُ بحسبِ الهويّةِ، ويُعادُ تَشكيلُ الذَّوقِ العامِّ ليُشتِّتَ لا ليُوحِّدَ.

يُقدِّمُ القرآنُ – في مقابلِ هذا الإفسادِ – مَبدأَ "الوحدةِ في الحقّ»، لا الوحدةَ الشَّكليّةَ، ولا التوحُّدَ القَسريَّ،

وحدةً تقومُ على القِيَم، وتُبنى على العَدل، وتُحفَظُ بالصِّدق. ولهذا نجدُ في قصّةِ (مُوسى) مع (فرعونَ) أنَّ أوَّلَ ما فعلَه النبيُّ معَ بَني إسرائيلَ، بعدَ الخروجِ، هو إعادةُ تَرميمِ الجَماعة؛ حيث أعادَ لهم الرُّوحَ المُشتركةَ، وعلَّمَهُم العِبادةَ الجَماعيّةَ، وذكَّرَهم بالميثاقِ، وحذَّرَهُم من التَّفرقة.

وبالمثلِ، نَرى في سيرةِ (النبيِّ محمَّد) ﷺ كيفَ بدأ مَشروعَه بـ "بناءِ الأمّة": الهجرة، والمُؤاخاة، والدُّستور المَدنيّ؛ حيث كانَت كلُّها خطواتٍ في اتِّجاهِ تأسيسِ جماعةٍ واعية، قادرةٍ على الوقوفِ في وجهِ الإفسادِ السِّياسيِّ والاجتماعيِّ والفِكريّ.

إنَّ تفكيكَ البنى الجَماعيّةِ هو استراتيجيّةٌ قَديمةٌ مُتجدِّدة، يُرادُ منها -فضلًا عن تَسهيلِ السَّيطرة- إجهاضُ أيِّ مشروعٍ إصلاحيٍّ قبلَ أن يَبدأ؛ إذ إنّ الفكرةُ التي لا تَملكُ حاضنةً جماعيّةً تَموتُ، والإيمانُ الذي لا يُترجَمُ إلى جماعةٍ ناهضةٍ يتآكَلُ.

والوعيُ الذي لا يَجدُ مَن يُشاركُه يَنطفِئُ. ولهذا، فإنَّ مقاومةَ الفسادِ تَحتاجُ إلى جهدٍ جَماعيّ، وإلى بناءِ الرّابطِ بينَ الأفرادِ، وتَرميمِ الثِّقة، واستعادةِ الانتماء؛ لأنَّ الإنسانَ الذي يَشعُرُ أنَّ له جُذورًا، وأنَّ له إخوانًا في المَسير، يَستعصي على الكَسرِ، ويَصعُبُ على المُفسِدِ اختراقُه.

■ المبحث الثالث:
إخضاع الوَعي -من تَسليعِ الحَقيقةِ إلى تَزييف المَعنى-

الوعيُ هو الجبهةُ الأخيرةُ التي يَسعى المُفسدونَ إلى اختراقِها، وربمَّا أخطرُها. فالسَّيطرةُ على الجسد قد تَستفزُّ المُقاوَمةَ، وتمَزيقُ المُجتمعِ قد يُولِّدُ الغضبَ، أمّا إخضاعُ الوَعي فهو الطَّريقُ الأنجحُ لإنتاجِ الخضوعِ الطَّويلِ الأمَد؛ لأنَّه يَجعلُ الإنسانَ يُشاركُ في خُضوعِه، وهو يَظنُّ أنَّه حُرٌّ، ويَعيشُ في الباطلِ، وهو يتصوَّرُ أنَّه يُمارِسُ اختيارَه. القرآنُ الكريمُ يُشيرُ إلى هذا المستوى من الفسادِ حينَ يتحدَّثُ عن تَبديلِ المَفاهيم وقَلبِ المَعايير؛ حيث يقول -تعالى- عن المُنافقينَ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١]، تتجلَّى هنا أُولى صُوَرِ إخضاعِ الوَعي: أن تُفرَضَ على النّاسِ قراءةٌ مُعيَّنةٌ للواقع، تُسمَّى فيها الهَزيمةُ حِكمةً، والتَّبعيّةُ عَقلانيّةً، والانحرافُ تقدُّمًا، ويُقدَّمُ الفسادُ نفسُه بوَصفِه إصلاحًا.

في العالَمِ المُعاصِر، تحوَّلَت وسائلُ تكوين الوَعي إلى صناعاتٍ كُبرى: الإعلامُ، والتَّعليمُ، والإعلاناتُ، ومنصّاتُ التَّواصُلِ، والإنتاجُ الثَّقافيّ، تَعملُ كلُّها بطريقةٍ مُتكاملٍ على إعادةِ تَعريفِ الحَقيقة، كما يُرادُ لها أن تُفهَم؛ حيث يُسلَّعُ المَعنى، فتُصبحُ القِيَمُ بضاعةً قابلةً للتَّسويق، ويُقدَّمُ الإيمانُ باعتباره عَلاقةً شخصيّةً مُنعزِلةً، بلا أثرٍ اجتماعيّ، وتُعادُ

صياغةُ المَفاهيم الكُبرى - مثل الحريّة، العَدالة، الكرامة - بلُغةٍ تمُجِّدُ الصورة وتُهمِلُ الجَوهَرَ.

وهكذا، يتحوَّلُ العقلُ الجَماعيُّ إلى مُستودَعٍ للاستهلاكِ الرَّمزيّ؛ حيثُ تُستهلَكُ الكلماتُ كما تُستهلَكُ المُنتجاتُ، ويَفقدُ الإنسانُ قدرتَه على التَّفريقِ بينَ الأصلِ والزّائفِ، وبينَ الجَوهرِ والسَّطحِ، ويُصبحُ الوَعيُ مُرتهنًا للانطباعِ، لا للتَّحليلِ، وللصُّورةِ، لا للحقيقة.

ومن أدواتِ هذا النَّوعِ من الفساد: التَّضخيمُ والتَّكرارُ؛ إذ إنّ كلَّ ما يُكرَّرُ يُصبحُ مألوفًا، وكلُّ ما يُضخَّمُ يَبدو حَقيقيًّا، حتَّى لو كانَ زائفًا من الأساس. كما قال -تعالى- في وصف الكاذبينَ على الله: ﴿**وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ**﴾ [النحل: ٩٤]؛ حيث إنّ الفتنةُ هنا في الظُّلمِ والتَّزييف، وذلكَ حينَ يُستخدَمُ الخطابُ الدِّينيُّ نفسُه، أو السِّياسيُّ، أو القيَميُّ، لإضفاءِ شرعيّةٍ على الانحراف.

ومن مَلامحِ إخضاعِ الوَعي أيضًا: تَجزئةُ الحَقيقة؛ بحيثُ لا يُقدِمُ الإنسانُ على رُؤيةٍ كليّة، بل يُغرقُ في التَّفاصيل، ويَهيمُ في العناوينِ الفَرعيّة، حتَّى يَفقدَ المَعنى العامَّ، ويَظنَّ أنَّه يُفكِّرُ، وهو في الحقيقةِ يَدورُ في دوائرَ مُفرغة. وهذا النَّمطُ من الفساد لا يُواجَهُ إلا بـبناءِ عقلٍ ناقد، ومُخيِّلةٍ يَقظة، وإيمانٍ مُتجذِّرٍ لا يَنخدِعُ بالبَريق.

ولذلك، فإنَّ أُولى خطواتِ الإصلاحِ هي تحريرُ الوَعي، بتَخليصِه

من الزَّيف، وبإعادة تَرتيب المَفاهيم، ورَبطها بالحقِّ لا بالمزاج العامِّ أو الخطاب المُسيطِر. وحينَ يَستعيدُ الإنسانُ قدرتَه على أن يُبصرَ الأشياءَ كما هي، وأن يُسمِّيَ الأمورَ بأسمائها، وأن يَرفضَ تَزييفَ القُبح على أنَّه جمالٌ، ويُعيدَ ترتيبَ أولويّاته من جَديد، ويُصبحُ بذلك أكثرَ مُقاومةً للمُفسدينَ، وأكثرَ إصرارًا على بناء البَديل. فالوَعيُ، في نهاية المَطاف، قوّةٌ خُلُقيّة، وجُرأةٌ على تَسميةِ الظِّلال، ورَغبةٌ أصيلةٌ في التحرُّر.

الفصل السادس:

أدوات الإفساد -من الخطاب إلى التِّقنيّة-

■ المبحث الأوَّل:
اللُّغة والخطاب -صناعة الشَّرعيّة وتَجميل القُبح-

يتجاوزُ المُفسِدُ العملَ في الظلِّ، ويتقدَّمُ للعملِ في العَلنِ، مُتَّكِئًا على خطابٍ يُهيِّئُ له الطَّريقَ، ولغةٍ تُعيدُ تصوير الواقعِ لصالحِه؛ حيث إنّ الإفسادَ يَبدأُ -غالبًا- بالكلمةِ التي تُبرِّرُه، والعبارةِ التي تُزيِّنُه، والتَّسميةِ التي تُخفِّفُ من بشاعته. ومن هنا، تُعدُّ اللُّغةُ والخطابُ من أهمِّ أدواتِ المُفسدينَ، لتَسويقِ الظُّلمِ، وحتَّى تشريعه وتَحويلِه إلى أمرٍ مألوفٍ، ومحمودٍ أحيانًا.

يَلفتُ القرآنُ النَّظرَ إلى هذه الظّاهرةِ منذُ بداياتِ الوَحي؛ حيثُ يَرتبطُ الكذبُ على الله أو تَزييفُ المَفاهيمِ بمساحاتِ الهَلاكِ والتَّحريفِ، يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [الأنعام: ٢١]، إنّ الافتراءَ هنا يكونُ بتَزويرِ الأقوالِ، ويكونُ أيضًا بنسبةِ القُبحِ إلى الخيرِ، وتَحويلِ الباطلِ إلى حقٍّ عبرَ خطابٍ يُلبِسُه ثَوبًا مَقبولًا.

إنّ أوّلَ ما يَفعلُه المُفسدُ هو تَغييرُ الأسماء، فبَدلَ أن يقولَ "قَتْل"، يقول "حرب وقائيّة»، وبَدلَ أن يقولَ "نَهْب"، يقول "خَصخصة»، وبَدلَ "استعباد"، يُسمِّيه "تدخُّل إنسانيّ»، ويَتحوَّلُ "الاحتلال" إلى "مهمّة سلام»،

ويُقدَّمُ "التطبيع" على أنّه "حِكمة استراتيجيّة».

لا يُغيِّرُ هذا التَّلاعبُ بالألفاظ جوهرَ الفعلِ، لكنَّه يُخدِّرُ الضَّميرَ، ويُربِكُ البوصلةَ الخُلُقيّة. وتتحوَّلُ الكلماتُ من ناقلةٍ للحَقيقة إلى أدواتٍ للتَّمويه، فاللُّغةُ، حينَ تَخرُجُ عن وظيفتِها التَّبيينيّة، تُصبحُ أداةَ قهرٍ ناعمة، وتَشغلُ العقلَ بتفسيرِ العباراتِ بدلَ مواجهةِ الواقع، وتُقدَّمُ الكارثةُ بوَصفِها قَدَرًا، والظُّلمُ بوَصفِه حَلًّا وسطًا.

وفي قصّة (فرعونَ)، نقرأُ أبلغَ تَمثيلٍ لهذا الاستخدامِ المَنهجيِّ للخطاب، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦]، يتحدَّثُ (فرعونُ) بلغةِ الحريصِ على الدِّين، ويُقدِّمُ النَّبيَّ بوصفه مخرّبًا، ويُلبسُ القتلَ ثوبَ الدِّفاعِ عن الجَماعة.

لا يَعكسُ الخطابُ هنا الحقيقةَ، بل يُركِّبُ واقعًا موازيًا، ويُمكِّنُه من تمريرِ جريمتِه في ثوبِ الإصلاح.

ومن أدواتِ الخطابِ الفاسدِ أيضًا: التَّهوينُ والتَّهويلُ حسب المَصلحة؛ حيث تُهوَّلُ الأخطاءُ الصَّغيرةُ لخصومِ المُفسِدِ، وتُهوَّنُ

الجرائمُ الكبرى حينَ تَصدُرُ عنه أو عن حُلفائه، فيُصبحُ الفسادُ الماليُّ "زلّةً إداريّة»، والظُّلمُ القضائيُّ "سوء تقدير»، والخيانةُ الوطنيّةُ "قراءةً مُغايرةً للواقع".

ويُضاف إلى ذلك أسلوبُ التَّكرار والإلحاح، فما يُكرَّرُ كثيراً، ولو كان زيفًا، يُصبحُ عندَ النّاس حقيقةً مُتداوَلة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا**﴾ [الجاثية: ٣٤]؛ حيثُ يُصبحُ النِّسيانُ المُتكرِّرُ لما هو حقٌّ تمَهيدًا لنسيانٍ دائمٍ للآخرة، وهذا مَنطقُ الوَعي المَغلوبِ أمامَ الخطابِ الطّاغي.

وفي عالَمِنا اليومَ، تتجلَّى هذه الأداةُ بوضوحٍ في وسائلِ الإعلام، التي لم أصبحَت تَصوغُ الواقعَ، وتُنتِجُ المَعنى، وتُشرفُ على تشكيلِ المزاجِ العامّ، على حين كانَ من المُفترَضِ أن تكونَ وظيفتُها نقلَ الخبرِ فحسب؛ إذ إنّ كلَّ كلمةٍ تُختار بعناية: لاجئ أم مُهاجر؟ مُقاوِم أم مُخرِّب؟ شهيد أم ضحيّة؟ احتلال أم سيطرة؟ وكلُّ اختيارٍ لفظيٍّ مَحسوبُ الأثَرِ والتَّأثير، وليسَ بريئًا أو عفويًّا.

لذلك، فإنَّ مقاومةَ الفسادِ تبدأُ بالكلمةِ والحجّة، قبلَ السَّيفِ والميدان، وتحرير المَعاني من الأسر، واستعادة القُدرة على تسميةِ الأشياءِ بأسمائها، والكفِّ عن استعمالِ قاموسِ المُفسدينَ في وصفِ العالَمِ. ففي النِّهايةِ، مَن يمَلكُ الخطابَ يمَلكُ القُدرةَ على تَوجيهِ الشُّعوبِ، وإعادةِ صياغةِ الحَقيقةِ، وامتِصاصِ الغَضبِ، أو تَخديرِه.

■ المبحث الثاني:
الإعلامُ والثَّقافةُ -هندسةُ الإدراكِ وتَطبيعُ الفساد (شواهد قرآنية)-

في بنيةِ الإفساد، هناكَ الأدواتُ التَّقليديّةُ التي تتمثَّلُ بالعُنفِ والمالِ والسلطة، وهناكَ أدواتٌ أخرى أشدُّ خَطرًا وفتكًا، تتجسَّدُ في الإعلامِ والثَّقافة، حينَ يُوظَّفان لإعادةِ تكوين الإدراكِ الجَمعيِّ، وإنتاجِ وَعيٍ مُزيَّفٍ يُمكِّنُ المُفسدينَ أن يَطبعوا فسادَهُم في الأذهانِ قبلَ أن يُمارسوهُ في الواقع. فالتحكُّمُ في الكلمة، والرمز، والصُّورةِ، هو تَحكُّمٌ في السُّلوكِ والمَوقفِ والتَّوجُّه في الوقت عينه، وهو ما عبرَّ عنه القرآنُ الكريمُ في أكثرَ من موضعٍ، مُنبِّهًا إلى قُدرةِ الخطابِ المُوجَّهِ على قلبِ المَفاهيمِ وتَزييفِ الحَقائق.

يقول -تعالى- عن المُنافقينَ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١]. هذه الآيةُ ترصدُ الجَريمةَ، كما أنَّها تكشفُ الخطابَ الذي يُغلِّفُها؛ حيث إنّ المُفسِدَ هنا يمُوِّهُ حَقيقتَه، ويُصرُّ على تَسويق نفسه بوصفه مُصلحًا.

تكمنُ المُشكلةُ الخطيرةُ في أنَّ الخطابَ الذي يَصدرُ عنه يمُارسُ تَضليلاً يُعيدُ إنتاجَ الفسادِ بلغةِ الإصلاحِ، وهنا تتجلَّى قدرةُ الكلمةِ على تَزويرِ المَعنى لا تَغييرِه فقط.

وفي نموذجِ فرعونَ، نجدُ أوسعَ تَطبيقٍ لهذه الاستراتيجيّة، إذ كان (فرعونُ) يُتقِنُ فنَّ الخطابةِ الرَّماديّةِ التي تَخلطُ الخَوفَ بالحِكمة، والمَصلحةَ العامّةَ بالقمعِ السياسيِّ، قال -تعالى- على لسانه: ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦]؛ حيث يُقدِّمُ (فرعونُ) (النبيَّ مُوسى) ﷺ بوَصفه مُهدِّدًا للقيَم، ومُفسدًا في الأرض، وهو – في الحقيقة – صاحبُ رِسالةٍ. هنا يتمُّ قَلبُ الأدوارِ، وتُستخدَمُ اللُّغةُ لتَشويه جوهرِ الإصلاحِ.

وفي آيةٍ أُخرى، يُبرِزُ القرآنُ كيفَ يَشتغِلُ الخطابُ السُّلطويُّ على إرباكِ النّاسِ وتَشتيتِ الوَعي الجَماعيّ، فيقول -تعالى-: ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ**﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فالمَلأُ – وهم الطَّبقةُ النّافذةُ – يُحرِّفونَ فهمَ الجمهور، ويُحمِّلونَ المُصلِحَ مَسؤوليّةَ الفَوضى، ويُصوِّرونَ التَّغييرَ تَهديدًا للهويّة والدِّين والنِّظام. هذا التَّلاعبُ بالخطاب هو لبُّ الإفسادِ الإعلاميّ والثَّقافيّ المُعاصِر؛ حيثُ تُعادُ صياغةُ الوقائعِ لخِدمةِ مَصالحِ النُّخبة.

في السِّياقِ المُعاصِر، يُمارِسُ الإعلامُ هذه الوظيفةَ بتقنيّاتٍ أكثرَ تطوُّرًا؛ إذ لم يعد الخطابُ يُلقى من على المنابرِ فحسب، بل يُضخُّ عبرَ الشّاشاتِ والمنصّاتِ والمَواقع، ويُقدَّمُ الفاسدونَ بصِفتهم أبطالاً، وتُكرَّسُ الصُّورُ الذِّهنيّةُ التي تَجعلُ من الغالبِ مَغلوبًا مَحبوبًا، ومن

المَهزوم حاقدًا ومُخرِّبًا، يقول -تعالى- في آية ذات دلالة دَقيقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النور: ١٩]؛ حيث تتجاوزُ هذه «الإشاعةُ» مُجرَّدَ نشرِ فضيحةٍ، لتُعبِّرَ عن عمليّةٍ ثقافيّةٍ مَقصودةٍ لتَطبيعِ الفاحشة، وتَحويلِها إلى جزءٍ من الخطاب العامِّ. وحينَ تَشيعُ الفاحشةُ، تتبلَّدُ الحواسُّ، ويَتراجعُ الوَعيُ، ويُصبحُ الحرامُ أمرًا مألوفًا، ويُنتِجُ المجتمعُ أجيالًا تَستهلكُ الانحرافَ دونَ شعورٍ بالصَّدمة أو الرَّفض.

وفي آية أخرى، يقول -تعالى- عن المُتربِّصينَ الذين يُسيطرونَ على المفاهيم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]. الكلامُ هنا رقيقٌ وعَذبٌ، لكنَّه يُخفي تحتَه سَعيًا للإفساد، فهو خطابٌ مُزدوج، يَلعبُ على الانطباعِ، ويُخفي الحقيقةَ خلفَ جدارِ البَلاغة.

يُكمِّلُ الإعلامُ في هذا السِّياق الحقلُ الثَّقافيُّ، الذي يُعيد تَشكيلَ الذَّوق العامِّ، ويُنتِجُ أعمالًا تُطبِّعُ الفسادَ الخُلُقيّ، وتُشيِّءُ الإنسانَ، وتُقدِّمُ التَّفاهةَ في قوالبَ فنيّة، ويُعاد عَبرَهُ إنتاجُ سَرديّات التّاريخ والحَضارة والهويّة بطريقة تُفقدُ الشُّعوبَ بوصلتَها. وهو ما يُمكنُ قراءتُه في قوله -تعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي

﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فزخرفةُ القول سلاحٌ رَمزيٌّ خطيرٌ، يُستخدَمُ لإضفاءِ البَريقِ على الباطِلِ، وليسَ تَجميلاً شَكليًّا للألفاظ والمَقولات.

وهكذا يتَّضحُ أنَّ الإعلامَ والثَّقافةَ، حينَ يَفقدانِ رسالتَيهما، يتحوَّلانِ إلى جهازٍ مُتكاملٍ للإفسادِ النّاعمِ، فيُعيدان صياغة الوَعيَ، ويُعطِّلانِ الحسَّ الخُلُقيّ، ويُفرغانِ القيَمَ من مُحتواها، ليَنتُجَ عن ذلكَ الإنسانُ «المُطوَّعُ»، الذي لا يَرى في الفسادِ إشكالاً، ولا في الاستبدادِ شُذوذًا، ولا في الانحرافِ خطرًا.

ومُواجَهةُ هذا النَّمط من الفسادِ تَبدأ من الوَعي به، وبناءِ خطابٍ يتَّصلُ بالقرآنِ، ويَسترِدُّ المَفاهيمَ، ويُعيدُ للنّاسِ لغتَهم ومَقاييسَهم ومَعاييرَهم.

■ المبحث الثالث:
التِّقنيّةُ والمَنظوماتُ الرَّقميّة -الفساد الخفيُّ في هندسة الواقعِ والذّات-

في عصرنا الرّاهنِ، تَجاوزَت أدواتُ الإفسادِ الخطابَ السِّياسيَّ والثَّقافيَّ، إلى ما هو أعمقُ وأخطرُ: المَنظومات الرقميّة والتِّقنيّة الحَديثة. هذه التِّقنيّةُ التي دخلتَ كلَّ بيتٍ، وتسلَّلَت إلى كلِّ شاشةٍ، بل إلى كلِّ

يد وجَيب، أصبحَت - بتركيبتها الخَفيّة ومَهامِّها المُعقَّدة - من أدقِّ أدوات التَّوجيه والتحكُّم في السُّلوك والخَيال والإدراك.

لا يَذكرُ القرآنُ الكريمُ التِّقنيّةَ بمَفهومها الحَديث، لكنَّه يُعالجُ الفِكرةَ من جذورها الواقعيّة، حينَ يُحذِّرُ من تَسخيرِ النِّعمة في الإفساد، ومن اتِّخاذ ما هو مُمكنٌ لتَحريف ما هو حقٌّ. ففي قصّة (السّامريّ)، نَلمَحُ أوَّلَ مُحاولة بشريّة في التّاريخ لصناعة "رمز تقنيّ" يُنافسُ الوَحيَ: ﴿**فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ**﴾ [طه: ٨٨]؛ إذ لم يَطلُبْ (السّامريُّ) من النّاسِ أن يُنكِرُوا الإيمانَ، وإنَّما قدَّمَ لهم بَديلاً مَصنوعًا بدِقّة، وجَذّابًا، ومَلموسًا، ويتكلَّمُ بلغة التَّجربة الحسِّيّة، وجعلَهم يَرونَه «إلهَ موسى»، مع أنَّ (مُوسى) حيٌّ وغائبٌ فقط.

تَعكس هذه المُفارقةُ بالضَّبط ما تَفعلُه التِّقنيةُ اليَومَ: تُقدِّمُ بَديلاً لكلِّ شَيء، وتُعيدُ تشكيلَ الواقع بطريقة أكثرَ إغراءً من الحَقيقة. فالمنصّاتُ الرَّقميّةُ اليومَ تَصوغُ عالَمًا مُوازيًا: تَقترحُ عليكَ الأفكارَ بناءً على "خوارزميّات" لا تَعرفُها، ويُعاد تكوين ذَوقكَ واهتماماتك بناءً على بياناتكَ الشَّخصيّة، ويُبنى لكَ عالَمٌ خاصٌّ بكَ، يُخاطِبُ غرائزَكَ، ويَعزِلُ وَعيَكَ عن العالَم الخارجيّ. وهذا ما يُشبهُ قولَ (إبليسَ) في القرآن: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ**﴾ [النساء: ١١٩]؛ إذ إنّ الضَّلالَ هنا ناتجٌ عن تَخطيطٍ دَقيقٍ، وعن هندسةٍ مُوجِّهةٍ للوَعي، وتُشوِّهُ الفِطرةَ،

وتُعيدُ تَعريفَ الخَلقِ والغايةِ.

تتجاوزُ التِّقنيّةُ الحَديثةُ حدودَ المَعلوماتُ، وتمَسُّ هويّةَ الإنسانِ وتكوينَه العاطفيَّ والمَعرفيّ، فتُصبحُ الحَقيقةُ نسبيّةً، والرّأيُ أقوى من الدَّليل، والصَّوتُ العالي أهمَّ من البُرهان، فتُعطى الشُّهرةُ لقائلِ الجُملةِ المنمّقة، لا للباحث الأصدَق، ويُبنى الانتباهُ على الإثارةِ، لا على الحِكمة. يَجري هذا كلُّه داخلَ فضاءٍ افتراضيٍّ تَحكمُه شركاتٌ، وتُشرفُ عليه مراكزُ قُوّةٍ، تمَلكُ قدرةً هائلةً على توجيهِ الرَّأي العامِّ، وصناعةِ القصصِ، وتَحديدِ ما يُرى وما يُهمَّش، وما يُدعَمُ وما يُسخَّفُ، يقول -تعالى-: ﴿**وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ**﴾ [الزخرف: ٣٦]. والعُشُوُّ هنا هو الغَفلةُ، التي تُنتجُ صُحبةً مُزيَّفة يَبدو فيها الإنسانُ متَّصلاً، لكنَّه في الحقيقةِ مُنعزلٌ عن المَعنى، وغارقٌ في التَّكرار، ومُحاطٌ بصَدى ذاته.

المَنظوماتُ الرقميّةُ، وإن كانَت تُقدِّمُ فوائدَ عَظيمةً، لكنّها تتحوَّلُ إلى أدواتِ إفسادٍ عندَما: تُستخدَمُ لتَسطيحِ العَقلِ لا لإثرائه، وتُقدِّمُ التَّرفيهَ على التَّفكيرِ، وتُروِّجُ التَّفاهةَ على أنَّها جُرأةٌ، وتُدخلُ الإنسانَ في دائرة من المُقارَنة والقلقِ والاستهلاكِ الدّائم. وإنَّ أخطرَ ما فيها أنَّها تُحدثُ نوعًا من الاستعمارِ النّاعمِ للفطرة: يَبدأُ الإنسانُ بالتَّساهُلِ فيما يَرى، ثم فيما يَسمع، ثم فيما يُفكِّر، حتَّى يُصبحَ كلُّ شَيءٍ قابلاً للتَّفاوضِ، وكلُّ مَعنًى نِسبيًّا، وكلُّ يقينٍ مَحلَّ سؤالٍ دونَ ضابطٍ. ولهذا، فإنَّ القرآنَ،

حين يتحدَّثُ عن الفساد، لا يَحصرُه في السُّلوكِ الظّاهرِ، بل يُحذِّرُ من الوسائلِ التي تَبدو عاديّةً، على حين أنَّها تَصوغُ العالَمَ على نحوٍ مُختلٍّ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ**﴾ [الروم: ٤١]؛ حيثُ يُشيرُ إلى أنَّ الفسادَ يَبدأُ من «الكَسبِ»، أي من الأدواتِ المُستخدمةِ: من التِّقنيةِ حينَ تُفصَلُ عن الوَعي، ومن التقدُّمِ حينَ يُنزَعُ منه المَعنى.

إنَّ مقاومةَ الفسادِ الرقميِّ لا تكونُ برَفضِ التِّقنيّةِ، بل بامتلاكِها ووعي آثارِها، ورَبطِها بمَنظومةِ القِيَمِ، وتَحصينِ النَّفسِ من الانجرافِ مع سَطحِها البرّاقِ؛ لأنَّ الإنسانَ في هذا العصرِ لا يُجدي معَه المَنعُ لحمايته؛ لأنَّه يُفسَدُ بما يُغرَقُ فيه، من دونِ أن يَنتبِهَ أنَّه يَفقِدُ جوهرَهُ قطعةً قطعةً.

الفصل السّابع:

مُواجهةُ الإفساد -من التَّخطيط المُقاوِم إلى الفعل الرِّساليّ-

■ المبحث الأول:
الرُّؤية القرآنيّة للمُواجَهة -الإفساد فعلٌ مُنظَّم والمُواجَهة كذلك-

لا يَكتفي القرآنُ الكريمُ بوَصفِ الفسادِ وتَعريةِ المُفسِدينَ، بل يُرسي أيضًا مبادئَ شاملةً للمُواجهة، تُخرِجُها من دائرة الانفعالِ العاطفيِّ إلى حقل الفعلِ المُنظَّم، ومن مَنطقِ الرُّدودِ المُتقطِّعةِ إلى مشروع مقاومةٍ عَميقٍ ممتدٍّ، ومُتماسكٍ في وَعيه وأدواته.

نظَر القرآنُ إلى الفسادِ بوصفه فعلاً يُمارَسُ بوَعي وتَخطيطٍ، وله غاياتٌ، وأدواتٌ، وتراكماتٌ. ولذلك، فإنَّ مواجهتَه تَحتاجُ إلى تخطيطٍ بَديلٍ، يُضاهي مِن حيثُ التَّماسكُ ما يَفعلُه المُفسِدونَ، ويَختلف عنه من حيثُ البوصلةُ والمقصدُ.

إنَّ أوَّلَ ما يُرسِّخُه القرآنُ في وجه الفسادِ هو البَصيرة؛ حيث لا يُمكن مقاومةُ ما لا يُفهَم، ولا يمكن تُهدَمُ مَنظومةٌ إلا بفَهمِ آليّاتها. ولذلك، نجدُ في القرآنِ دعوةً دائمةً إلى التدبُّرِ والفَهمِ وعدمِ الرُّكونِ للظّاهرِ، قال -تعالى-:

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا يَكفي أن يُرفَضَ الغَيُّ، بل يَجبُ أن يُفهَم الرُّشدُ، ويُبنى الوَعي على التَّمييز، لا على مُجرَّد النُّفور.

ثم تأتي الخطوةُ الثّانيةُ: كشفُ البنيةِ الخفيّة للإفساد؛ حيث يَفضَحُ القرآنُ مُمارسةَ المُفسدين، وفي الوقت ذاته يُعرِّي النيّةَ والمَنطقَ الذي تقومُ عليه، نَرى -مثلاً- كيفَ يُفكّكُ منطقَ فرعونَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ففرعونُ هنا يبتعدُ عن الحقيقة، ويُلبسُ كلامَه لباسَ الحذرِ والخوفِ على المُجتمع، فيكشفُ القرآنُ زَيفَ ادِّعائه، ويُفكّكُ المنهجَ الذي يَبني عليه سُلطتَه.

ومن أدواتِ المُواجهةِ القرآنيّة: تَثبيتُ المَفاهيم وتَصحيحُ اللُّغة. فالخطابُ هو ساحةُ المَعركةِ الأولى، فيصبح إعادةَ تعريفِ "الفساد"، و"الإصلاح"، و"القيمة"، و"النَّجاح»، مهمةً استراتيجيّةً.

قال -تعالى-: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، فالخَللُ كما يكونُ في الفعل، يكونُ أيضًا في التَّقويم، في مَن ظنَّ أنَّه يُحسنُ، وهو يُهلكُ. ثمَّ يُؤكِّدُ القرآنُ على ضرورة البناءِ الدّاخليِّ قبلَ أيِّ مُواجَهةٍ خارجيّة. فلا مَعنى لمُحاربةِ الفسادِ في الخارج، على حين يكونُ الدّاخلُ هَشًّا، والوَعيُ ضعيفًا، والبَصيرةُ مُشوَّشةً، والقِيَمُ مَهزوزةً. ومن هنا، تَردُ الآياتُ التي تُحفِّزُ على الصَّبرِ والثَّباتِ والتَّزكيةِ والتَّقوى، باعتبارها وسائلَ إعدادٍ للنَّفسِ لتكونَ قادرةً

على المُواجهة، قال -تعالى-: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا**﴾ [الأنفال: ٢٩]. والفُرقانُ هنا قُوّةٌ وجوديّةٌ لرُؤيةِ الحَقيقةِ والوقوفِ فيها.

ثم تأتي مرحلةُ المُواجَهةِ العَمليّةِ، التي تتمثَّلُ في:

- القول، كالمَوعظةِ والبَيانِ والتَّبليغِ، كما فعل الأنبياء.
- العمل من خلالِ بناءِ البَديلِ، لا مُجرَّد انتقادِ القائم.
- الصَّبر على الأذى والمُقاومة والنَّتائج البَطيئة.
- التَّحالف مع القوى الصّادقةِ، وتجنُّب التَّورُّط في صراعاتٍ جانبيّةٍ تُشتِّتُ الجهدَ.

حين يُواجهُ القرآن (فرعونَ)، لا يُسلِّطُ عليه مُعجزةً صاعقة، بل يُرسِلُ إليه نبيًّا بكلمة: ﴿**فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ**﴾ [طه: ٤٤]. وهذا يُرسِّخُ مبدأَ أنَّ المُواجهةَ تَبدأُ بالكلمةِ، وبالصَّبرِ، وبالعَقلِ، لا بالصُّراخِ أو الغضبِ المُجرَّد. ويُظهرُ القرآنُ بوضوحٍ أنَّ المُفسدينَ يُهزمونَ حين يُبنى وعيٌ جماعيٌّ بَديلٌ، ومجتمعٌ يَعرفُ نفسَه، ويَصبرُ، ويَعملُ، ولا يُساومُ. لهذا، فإنَّ الرُّؤيةَ القرآنيّةَ للمُواجهةِ تَقومُ على التَّحليلِ العَميقِ للإفساد، والتَّحصينِ الدّاخليّ للمُجتمعِ والفَرد، والمُواجهةِ بالحِكمةِ والبَديلِ، لا بالشَّتيمةِ والفَراغ، والصَّبرِ الاستراتيجيِّ لا الانفعالِ العابرِ، فيجعلِ من ذلك كلّه من مقاومةِ الفسادِ مَشروعًا رساليًّا، يُبنى على الإيمانِ، لا الكراهية، وعلى العدالةِ، لا الثَّأرِ، وعلى البَصيرة، لا الغَضَبِ.

■ المبحث الثّاني:
أدوات المُواجهةِ القرآنيّة -من تَثبيتِ المَفاهيمِ إلى بناء البَديل-

المُواجهةُ في التَّصوُّرِ القرآنيِّ هي بِناءٌ فعّالٌ للخَيرِ، لا مُقاومةٌ سَلبيّةٌ للشَّرِّ، وتَبدأُ من المَفاهيمِ لا من المَيادينِ، وتُتوَّجُ بالبَديلِ، ولا تَقفُ عندَ الاحتجاجِ. ففي كلِّ موضعٍ يَفضحُ فيه القرآنُ الفسادَ، يُقدِّمُ في المقابلِ قيمةً تُثبِّتُ، وسُلوكًا يُؤسِّس، ومُجتمَعًا يُبنى.

ومن هنا، فإنَّ أدواتِ المُواجهةِ التي يَقترحُها القرآنُ تتوزَّعُ على ثلاثة مَحاورٍ: التَّحصين المَفاهيميّ، التَّنشئة التَّربويّة، والبناء العمليّ.

أولًا: تَثبيت المَفاهيم واسترداد اللُّغة

يُعلِّمُنا القرآنُ أنَّ أولى خطوات المُواجهةِ هي تحريرُ المَعاني من قبضةِ المُفسدينَ. فهم يُحاولونَ دومًا مصادرةَ المُفرداتِ، وتَزويرَ الحقائق، عبرَ لغةٍ ظاهرُها نورٌ وباطنُها ظلامٌ، يقول تعالى عن المُنافقين: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ**﴾ [المنافقون: ٤]، فالمَظهرُ خدّاعٌ، والخطابُ مُبهرٌ، لكنَّ المَضمونَ فارغٌ. وهذا ما يَحدث- تمامًا- حينَ يُستخدم الإعلامُ والثَّقافةُ لتَلميعِ الفسادِ أو تَمويهه. لذلك، فإنَّ الردَّ يَبدأُ بإعادة تعريفِ الكلماتِ، وبأن نقول: هذا الظُّلمُ ظُلمٌ، لا «أمْن»، وهذا النَّهبُ نَهبٌ، لا "تَنمية»، وهذه التَّبعيّةُ تَبعيّةٌ، لا "انفتاح».

ثانيًا: التَّنشئة التَّربويّة وتَزكيةُ النَّفس

يَنظرُ القرآنُ إلى الإنسان بوصفه مشروعًا في التَّكوين، لا مَخلوقًا مُستهلكًا. وهو يَربطُ كلَّ مُواجهةٍ خارجيّةٍ بعُمق داخليّ: الصِّدق، والإخلاص، والتَّقوى، والوَعي، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]؛ حيث يَنطلقُ التَّغييرُ هنا من التَّوبة الفرديّة، لكنَّه يَشملُ إعادةَ تشكيلِ النَّفسِ الجَمعيّة، وبناءَ وعيٍ تربويٍّ يُنمِّي النَّقدَ، ويَزرعُ الإحساسَ بالمَسؤوليّة، ويُعيدُ تَعريفَ النَّجاحِ بمَنطقِ الأخلاقِ لا الأرباح. فلم يشتغل الأنبياءُ عليهم السلام على البنى فقط، بل ربَّوا أفرادًا أمناءَ على الرِّسالة. ولذلك، نَرى في قصّةِ (مُوسى) أنَّ التَّربيةَ كانت جزءًا من الإعداد: ﴿**وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى**﴾ [طه: ٤١]، ثمَّ أمرَه بأن لا يَستعجلَ أمر (فرعون)، وأن يُشركَ معَه مَن يُعينُه؛ فالمُواجَهة لا تُخاضُ إلّا في جماعةٍ تُربّى على الصَّبرِ والبَصيرة.

ثالثًا: البناء العمليُّ وتَقديم البَديل

أخطرُ ما يَفعلُه الفسادُ أنَّه يُقنعُ النّاسَ بأنَّ الواقعَ لا بَديلَ له. ولذلك، فإنَّ الاقتصارَ على النَّقضِ لا يَكفي، بل يَجبُ تَقديمُ نموذجٍ عمليٍّ بَديلٍ يُثبتُ إمكانيّةَ الإصلاح. ويُعلِّمُنا القرآنُ أنَّ كلَّ إصلاحِ الأنبياءِ يَبدأُ بإعادةِ التَّرتيب لا بالاحتجاج. فـ (نوحٌ) عليه السلام بَنى السَّفينةَ، و(إبراهيمُ) عليه السلام حطَّمَ الأصنامَ ورفعَ القواعدَ من البيت، و(موسى) عليه السلام أخرجَ

القومَ ونَظَّمَهم، ونبيّنا (محمَّدٌ) ﷺ أسَّس المَدينةَ والدولة الإسلاميّة.

فالإصلاحُ لا يكونُ إلّا بالمُؤسَّسات، والعَدالة، والتَّعليم، والاقتصاد، والإعلام النَّظيف، يقولُ -تعالى- في تَشخيص دقيق لحالة النَّفس البشريّة أمامَ الظُّلم: ﴿**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ**﴾ [هود: ١١٦]، فالمُشكلةُ هنا في وُجودِ المُفسدينَ من جهةٍ، وغيابِ الكتلة الواعية القادرة على النَّهي عن الفساد من جهةٍ أخرى. وهنا تأتي مَهمّةُ صناعة هذه "البقيّة" التي تُعدُّ نفسَها وتَشتغلُ على الزَّمن الطَّويل. وفي هذا كلِّه، تظلُّ القُدوةُ أداةً مَركزيّةً، فكما تتَّبعُ النّاسُ الفكرةَ، تتَّبعُ مَن يُجسِّدُها. ولذلك، فإنَّ السُّلوكَ الصّادقَ، والنَّموذجَ الحيَّ، يَفعلانِ في النُّفوسِ ما لا تَفعلُه الكُتب.

■ المبحث الثالث: الوَعيُ الجماعيُّ والمُمانعةُ الحضارية -من الرَّفض الفرديّ إلى مُقاومةٍ مُنظَّمة-

لا يَكفي في مُواجَهة الإفساد، أن يكونَ الإنسانُ صالحًا في ذاته أو غاضبًا في وجدانه، ما لم يتحوَّل الوَعيُ الفرديُّ إلى وعي جماعيّ، والمَوقفُ الخُلُقيّ إلى بنيةٍ مُقاومة. فالإفسادُ مَشروعٌ مُنظَّمٌ، له شبكاتُه وأدواتُه وخطابُه، ومُواجهتُه لا تَنجحُ إلا بمُمانعةٍ حضاريّةٍ طويلةِ

النَّفَس، تُراكِمُ الوَعيَ، وتَبني البَدائلَ، وتُعيدُ تنظيم الحياةِ بمَعاييرِ الحقِّ والعَدل.

فحينَ يتحدَّثُ القرآنُ الكريمُ عن الأمم السّابقة، يُبرزُ فسادَ حُكّامها وانحرافَ قادتها، وفي الوقت ذاته يُحمِّلُ المجتمعَ كلَّه مَسؤوليّةَ الصَّمت والتَّواطُؤ، يقول -تعالى-: ﴿**كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٩]، حيث لم يكنْ الخطأُ في الفعلِ فقط، بل في غيابِ النَّهي، وغيابِ الوَعي الجماعيِّ الذي يَقف في وجه المُنكَر ويُظهرُ القِيَمَ، ويُنتِجُ الحَصانةَ النَّفسيّةَ والاجتماعيّة.

إنَّ أُولى مَراحلِ بناءِ هذا الوَعي هي إدراكُ أنَّ الفسادَ اختيارٌ لا قَدَرٌ، وأنَّ السُّكوتَ عنه مُشاركةٌ، وأنَّ كلَّ فعلٍ صَغيرٍ مُقاوِم، وكلَّ كلمة حقٍّ، وكلَّ تَربية صادقة، وكلَّ صدقة نَظيفة، وكلَّ سلوكٍ نَزيه، هو لبنةٌ في جدار المُمانَعة. يُؤسِّسُ القرآنُ هذا المَفهومَ حينَ يُحمِّلُ حتَّى الأفرادَ مَسؤوليّةَ التَّثبيط: ﴿**لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ**﴾ [التوبة: ٤٧]، فوجودُ «السَّمّاعينَ لهم» هو ما يُضعفُ البنيةَ الدّاخليّةَ. لذلك فالوَعي لا يكتملُ إلا حينَ تُغلَقُ المَساربُ التي يتسلَّلُ منها الفسادُ، كما يُشيرُ القرآنُ إلى أنَّ المُجتمعات تتفاوتُ في استجابتها للرِّسالة، فهناكَ مَن يَحملُها، وهناكَ من يُثبِّطُ، وهناك مَن يتفرَّجُ، وهناكَ مَن يُناورُ، وفي كلِّ أمّةٍ هناكَ «طائفة» تَصمُدُ، قال -تعالى-: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ**

﴿طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، هذه «الطّائفةُ» تُقاسُ بالوَعي لا بالعَدَد، وهي النّواةُ الصُّلبةُ التي تُحافِظُ على المَعنى وسطَ الضَّجيج، وتَمنعُ الأمّةَ من الانهيار الكامل، وهذا يَفتحُ على مَفهومِ المُمانعةِ الحَضاريّة التي تَعني امتلاكَ الرُّؤية، والقدرةَ على الصُّمود، وبناءَ المَشروعِ البَديل، فالمُمانَعةُ تَربويّةٌ، ومَعرفيّةٌ، واقتصاديّةٌ، وفنيّةٌ، وعلميّةٌ، وليسَت سياسيّةً فقط، وهي أن يُبنى مجتمعٌ يُديرُ حياتَه بإرادته، ولا يَستوردُ كلَّ ما يستهلكه من الخارج، ولا يُستدرَجُ لكلِّ شائع ودارج، ولا يَنكسرُ لكلِّ ضُغوط، وأن يكون للنّاسِ حقّ الاختيار، عبرَ مُؤسَّسات راشدة، وتَعليم نَزيه، وإعلام صادق.

وقد أشارَ القرآنُ إلى ذلك ضمنًا في قصّة (طالوتَ) و(جالوتَ)؛ حيثُ لم تَنتصِر كثرةٌ، وإنّما «الفئةُ القَليلة»، التي تحمَّلَت الابتلاءَ وصبرَت، قال -تعالى-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. هذا درسٌ في بناءِ القوّة الدّاخليّة، والثِّقة بالحقِّ، والاستعداد للمُواجهة حتّى من مَوقع القلّة.

إنَّ المُفسدينَ يُراهنونَ على نسيان النّاس، وعلى تبدُّد الذّاكرة، وتكرار الهَزيمة، وخَيبة البَدائل. لكنَّ القرآنَ يُعيدُ الثِّقةَ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. فالنَّصرُ ليسَ حَتميًّا تلقائيًّا، بل مَشروطٌ بمَن يَنصُرُ اللهُ، أي بمَن يَحملُ قِيَمَه، ويَصبرُ عليها، ويَبني بها، ويُبلِّغُها دونَ مُساوَمة.

الفصل الثّامنُ:

تجلِّياتُ الإفسادِ -بينَ التّاريخِ والرّاهنِ والمُستقبَل-

■ المبحث الأوَّل:
تَطبيقاتٌ من التّاريخِ -وقائعُ قرآنيّةٌ عن المُفسِدينَ في سياقاتِ الحُكمِ والمُجتمعِ-

يَمنحُنا القرآنُ الكريمُ، في عرضِه التّاريخيِّ لأمم الماضي، مرآةً نتأمَّلُ فيها أنفسَنا لا غيرَنا. فالقصصُ التي تتكرَّرُ بينَ سُوَرِه وسياقاته إنَّما تُذكَرُ لِزَرعِ وعيٍ حاضرٍ وتَحذيرٍ مُستقبليّ. وفي تتبُّعنا لأوجُهِ الإفساد، كما وردَت في النصِّ القرآنيِّ، نكتشفُ أنَّ ما نَعيشُه اليومَ، من ظُلمٍ وتَشويهٍ وخَللٍ في المَوازين، إنَّما هو إعادةُ إنتاجٍ لأنماطٍ قديمة، تغيَّرَت مَظاهرُها، وبَقي جوهرُها. من هنا، فإنَّ تتبُّعَ النَّماذجِ القرآنيّةِ للإفساد، ومقارنتَها بتَجلِّياتها الحَديثة، يُتيحُ لنا أن نَرى الرّاهنَ من خلالِ عدسةِ الوَحي، وأن نَفقهَ التّاريخَ كأداةِ تَشخيصٍ، لا مُجرَّدَ عِبرةٍ أدبيّة.

لِنأخُذْ، -مثلاً- صورةَ قومِ (نوحٍ)؛ حيث يُقدِّمُهم القُرآنُ على أنَّهم مجتمعٌ مُغلَقٌ فكريًّا، ومُتشبِّثٌ بعَقائده المَوروثة، ورافضٌ للاستماعِ إلى نبيّهم، ومُتحصِّنٌ ضدَّ أيِّ خطابٍ يُهدِّدُ مَنطقَه السّائدَ. حين يقول نوحٌ:

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، فنحنُ نقرأُ هنا مَوقفًا جَماعيًّا ضدَّ التَّغيير، ضدَّ الاعترافِ بالخَللِ، وضدَّ أيِّ دعوةٍ للإصلاح. وهذا النَّمطُ لا يَزالُ قائمًا في مُجتمعاتنا الحديثة، حينَ تتحصَّنُ أنظمةٌ فكريّةٌ مُغلَقةٌ خلفَ شعاراتِ "العَقلانيّة المُطلَقة" أو "التحرُّر الكامل" أو حتى "الإجماع العلميّ"، وتُغلِقُ البابَ أمامَ أيِّ خطابٍ يَتساءلُ عن الأسُس أو يَدعو إلى المُراجعة.

إنَّ المُؤسَّساتِ التي تُنتج الأفكارَ، في العالمِ المُعاصِر، من مراكزِ الأبحاثِ إلى غُرفِ التَّحريرِ في الإعلام، فإنّها تقومُ بوظيفةٍ مُشابهةٍ لقومِ (نوحٍ)؛ إذ تُصمُّ الآذانَ عن أصواتِ الأنبياءِ الجُددِ، وتُغلِقُ نوافذَ التأمُّلِ، وتُشيطِنُ كلَّ دعوةٍ للخروجِ عن المَسارِ المَرسوم.

ثم ننتقلُ إلى قومِ عاد؛ حيثُ القوّةُ في الأجسامِ والعمرانِ والهَيمنة، قال -تعالى-: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠]، إنَّهم قومٌ يَستخدمونَ أدواتِ الحضارةِ في العَبثِ والاستعلاء، وتَبدو مُفرَدةُ «آية تَعبثونَ» مُعبِّرةً جدًّا عن استخدامِ التِّقنياتِ والإنجازاتِ باعتبارها وسيلةً استعراضيّةً جَوفاءَ.

لا يَختلفُ هذا المَنطقُ عن كثيرٍ من المُمارساتِ الحَديثةِ التي نَراها في المدنِ الضَّخمةِ، والتي تُبنى بلا هدفٍ سوى التَّفاخُرِ، في مشاريع

بُنى تَحتيّة تُكلِّفُ المليارات، وتُوجَّه للاستعراض لا لخدمة الإنسان.

وفي الدُّول التي تستخدمُ عمرانَها الضَّخمَ وقُواها الصِّناعيّة باعتبارها وسيلةً لفَرض الهَيمنة الثَّقافيّة والعَسكريّة والاقتصاديّة، نَستعيدُ هذا النَّموذجَ ذاتَه؛ حيثُ القوّةُ أداةُ بطشٍ رَمزيٍّ وماديٍّ، لا بناء عادل.

وإنَّنا لَنلمحُ هذا في بعض السِّياسات الغربيّة التي تُسوِّقُ قوّتَها بوَصفها بُرهانًا على الصَّواب القيَميّ، وتُبرِّرُ تدخُّلاتِها القَمعيّةَ في العالَم تحتَ عنوان "الحَداثة"، كما برَّرَت عادُ بَطشَها باسم الخلود والبَقاء.

وفي قصّة قوم (شُعيب)، تَبرُزُ ظاهرةُ الفساد في المُعاملات الاقتصاديّة، يقول -تعالى-: ﴿**أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ**﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣]؛ يُمارَسُ الفسادُ هنا بالميزان لا بالسِّلاح، وكانَت المُعاملاتُ اليوميّةُ، كالغشِّ، والتَّطفيفُ، واستغلالُ الحاجة، هي أرضيّةُ الإفساد التي تُهدِّدُ المجتمعَ من الدّاخل. وكم يُشبهُ هذا ما نَراهُ اليومَ من نُظم اقتصاديّة تشرّع الرِّبا تحتَ مُسمَّيات القُروض، وتُحوِّلُ الغذاءَ إلى سلعة للمُضارَبة، وتُخرِجُ العملَ من بُعده الإنسانيِّ ليُصبحَ آلةً للإنتاج البارد. وفي هذا الجوِّ، يُبخَسُ النّاسُ أشياءَهُم، بالوزن، والقيمة، والكرامة، والحقِّ.

تُمارسُ الشَّركاتُ الكُبرى -التي تتحكَّمُ في اقتصاد العالَم- كثيراً ممّا حذَّرَ منه (شُعيبٌ)، ولكنْ بتقنيّاتٍ أكثرَ تَعقيدًا، وبخطابٍ ناعمٍ يُخفي جوهرَ الاستغلال.

أمّا قومُ (لوط) فهمُ النَّموذجُ الذي يُقدِّمُه القرآنُ للانحرافِ حينَ يتجذَّرُ ويتحوَّلُ إلى ثقافة جماعيّة، لا مُجرَّد شُذوذ فرديّ، قال -تعالى-: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، ثم يُضيف: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فالفسادُ هنا بلغَ درجةً من الانقلابِ القيَميِّ؛ حيثُ يُستهدَفُ المُصلحونَ بوَصفهم غُرباءَ عن المجتمع، والنَّجاسةُ تُعتبرُ حريّةً، والطَّهارةُ تُقدَّمُ على أنّها رجعيّةً.ونَشهدُ هذا النَّموذجُ اليومَ حينَ تتحوَّلُ الانحرافاتُ الخُلُقيّة إلى هويّات مَحميّة بالقانون، وتُعادُ كتابةُ اللُّغة والمَعايير لتُلبِّسَ الانحرافَ لَبوسَ الحريّة الشَّخصيّة، وتُقدَّمُ الثَّقافةُ التي تَحتفي بالتفكُّك الأسريِّ والجنسِ الاستهلاكيِّ على أنَّها قِمّةُ التطوُّر الإنسانيّ. فما كانَ قومُ (لوط) يُمارسونَه من أفعال شاذّة، باتَ في عالَمنا الحديث مُؤسَّسيًّا، وقانونيًّا، ومَدعومًا بالإعلام والتَّعليم والسِّياسة.

أمّا (بَنو إسرائيلَ)، فيرسم القرآنُ صورةٌ عَنهم ليسَت في فسادِ الحُكم أو المال، بل في الفسادِ الخُلُقيّ والاجتماعيِّ، حين يُستبطَنُ ويُمارَسُ باسم الدِّين، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، وقوله أيضًا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤]. فالسُّكوتُ، والتَّطبيعُ معَ الباطلِ، وتبلُّدُ الحسِّ، والانشغالُ بالصورة دونَ الجَوهر، كلُّها تَجلِّياتٌ لفسادٍ صامتٍ، لكنَّه قاتلٌ. وهذا هو أحدُ أبرزِ مَلامحِ

المُجتمعات الحديثة، التي تَرفعُ شعاراتِ الحريّةِ والعَدالةِ والحقِّ، لكنَّها تقفُ مُتفرِّجةً أمامَ المَجازرِ والظُّلمِ والنَّهبِ، وتُسهمُ في صَمتها بتَكريسِ الظُّلمِ، كما فعلَت جماعاتُ بَني إسرائيلَ، حينَ تركتِ الأمرَ بالمَعروفِ، وغَلَّبَت السَّلامةَ على المُقاومة.

بهذه الطَّريقة، يُقدِّمُ لنا القرآنُ خريطةً مُعقَّدةً لتاريخِ الإفسادِ:

- مُجتمعٌ يَرفضُ الاستماعَ (قوم نوح).
- قوّةٌ تَتباهَى بالبناءِ وتَبطِشُ بلا عَدالة (عاد).
- اقتصادٌ يُخادِعُ في الكيلِ والوَزن (مدين).
- ثقافةٌ تُطبِّعُ الانحرافَ، وتُجرِّمُ الطَّهارةَ (قوم لوط).
- جماعةٌ تُؤسِّسُ للسُّكوتِ بوَصفه حكمةً (بنو إسرائيل).

هذه النَّماذجُ ما تزالُ تَحكُمُ واقعَنا، لكنْ بأسماءٍ برّاقة، وبأدواتٍ تقنيّة، وبخطاباتٍ مُموَّهة. والمَطلوبُ منّا هو أن نَقرأَ التّاريخَ لكي نُفكِّكَه، ونَرى في الآياتِ تَشخيصًا لِما بينَ أيدينا، لا لِما مَضى.

■ المبحث الثاني: تَجلِّيات الإفساد في واقعنا المُعاصر -من الوقائعِ اليَوميّة إلى السِّياساتِ الكُبرى-

لم يَعدِ الإفسادُ في عالَمِ اليَومِ فِعلاً مشينًا يُرتكبُ في الخَفاءِ، لقد

صارَ كثيرٌ من مظاهره يُمارَسُ عَلنًا تحتَ عناوينَ برّاقة، ومن خلال مُؤسَّسات قائمة، وبوساطة أدوات حديثة، حتَّى كادَ أن يتحوَّلَ إلى جزءٍ من «الطَّبيعة العامّة» للحياة المُعاصرة.

وإذا كان القرآنُ الكريمُ قد كشفَ عن الإفساد في صُوَره العارية، فإنَّ الواقعَ المُعاصرَ يُقدِّمُه في صُوَر مُزخرفة، ومَلفوفة باللُّغة النّاعمة، ومَدعومةً بقوانينَ، ومُسوَّغةً بخطاب تَنمويٍّ أو حُقوقيٍّ أو علميٍّ. لكنَّ التَّدقيقَ في هذه الظَّواهر، يَكشفُ أنَّها امتدادٌ لما سمّاهُ القرآنُ: ﴿**ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١].

تُشير العبارةُ القرآنيّةُ «ظهرَ الفَسادُ» إلى عَلنيّة الإفساد وانتشاره، و«في البرِّ والبَحر» تَرمزُ إلى شُموليّته، و«بما كسبَت أيدي النّاس» تُؤكِّدُ أنَّه صناعةٌ بشريّةٌ، و«ليُذيقَهم» تُنذرُ بأنَّ عاقبته آتيةٌ لا مَحالةَ.

هذا التَّوصيفُ الدَّقيقُ يُمكِنُ أن يكونَ مفتاحًا لقراءة تَجلِّيات الفساد في حاضرنا؛ ففي المُستوى الفرديّ، نَرى كيفَ تحوَّلَت النَّزعةُ الاستهلاكيّةُ إلى سُلوك مخطّط له. فالفردُ المُعاصرُ يُربَّى - منذُ نعومة أظفاره - على أنَّ قيمتَه فيما يَملكُ لا في مَن يكونُ، وفيما يَشتري لا فيما يَعتقدُ، وفيما يَلبسُ لا فيما يَحملُ من معنًى.

وهكذا، يُصبحُ التسوُّقُ نوعًا من أنواع الهويّة، والامتلاكُ معيارًا للنَّجاحِ، والاستهلاكُ طَقسًا يَوميًّا يُغني عن التأمُّلِ أو المُحاسَبة؛ تُنتجُ

الشَّركاتُ الكُبرى الحاجةَ، ثم تُقنعُ النّاسَ بها، ثم تُشعرُهُم بالنَّقصِ ما لم يَشبعوها، حتى يَغدُوَ الإنسانُ أسيراً لِما كسبَت يداهُ، ولِما روَّجَتْه له الآلةُ الاقتصاديّةُ والثَّقافيّة. وما هذا إلا ترجمةٌ مُعاصِرةٌ لقوله -تعالى-: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣].

أمّا في الحقلِ الإعلاميِّ، فإنَّ الصُّورةَ تأخُذُ بُعدًا آخَرَ؛ إذ اصبحَ الإعلامُ وَسيلةً لصياغةِ الإدراكِ وإعادةِ تنظيمِ الواقعِ. ويُلاحَظُ كيفَ تتحكَّمُ النَّبرةُ، والمُصطلحاتُ، والتَّكرارُ في تكوينِ الرَّأيِ العامِّ؛ حيث تُصوَّرُ الحروبُ على أنَّها "تدخُّلاتٌ إنسانيّة"، ويُقدَّمُ الاحتلالُ على أنّه "استقرار إقليميّ"، ويُوصَفُ النّاهبونَ بـ"الفاعلينَ الاقتصاديِّينَ"، ويُبرَّرُ كلُّ انحرافٍ تحتَ لافتةِ الحريّة، وهذا ما صَوَّرَه – تمَامًا- القرآنُ في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١]. فحينَ يُحكَمُ الخطابُ الإعلاميُّ من قِبَلِ المُفسِدينَ، يبتعدُ عن الواقعِ، ويُعادُ إنتاجُه حسبَ مصلحةِ الأقوياء.

وفي السِّياساتِ الاقتصاديّة، نجدُ أنَّ العالَمَ يَشهدُ تفاوُتًا غيرَ مَسبوقٍ في الثَّروة؛ حيثُ تَمتلكُ أقلَّ من ١٪ من البشريةِ أكثرَ من نصفِ ثَرواتِ الأرضِ، وتُفرَضُ على الدُّولِ الفَقيرةِ نُظُمُ تَمويلٍ مَشروطةٌ تُكبِّلُها وتَمنعُها من النُّهوضِ، وتُروَّجُ الخَصخصةُ كأنَّها الحلُّ الوحيدُ، معَ أنَّها كثيراً ما تُؤدِّي إلى بيعِ المَرافقِ الحَيويّة، وتَسليمِ حاجاتِ النّاسِ إلى شركاتٍ لا تَرى في الإنسانِ سِوى رقمًا في دَفترِ الأرباحِ. وهذا ما أشارَ إليه القرآنُ

في وصف (قارون) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. فمَنطِقُ الاستحقاق الفرديِّ المَغرور، والتَّبرير التِّقنيِّ للثَّروة، لا يُخفي حقيقةَ أنَّ ما يُسمَّى «نظامًا عالميًّا» إنَّما هو مَنظومةٌ مُؤسَّسيَّةٌ من الإفسادِ المَحميِّ بالقانون.

أمّا في حقلِ التِّقنيّة، فقد باتَ الإنسانُ نفسُه هدفًا لإعادة هيكلته؛ حيث يُتابَع سُلوكُه، وتُجمَعُ بياناتُه، ويُعادُ تَوجيهُ انتباهه، ويُخاطَبُ عبرَ خوارزميّات لا تَراهُ إلا مُستهلكًا. وقد تُستثمَرُ هذه المنصّاتُ في نشرِ الكراهية، التَّمييز، التَّفاهة، والفُجور، وتُقيِّدُ حريّةَ مَن يقولُ الحقَّ، وتَفتَحُ الأبوابَ لمَن يُروِّجُ للباطلِ. وهكذا، تُصبحُ التِّقنيّةُ أداةً في يدِ مَن يُهندِسُ الواقعَ ليُنتِجَ الإنسانَ الذي يُريدونَه: مُتشظِّيًا، وقَلِقًا، وفارغًا من المَعنى، ومُحاصَرًا بالرَّغبات. وفي هذا يتحقَّقُ تَحذيرُ اللهِ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩].

وفي قضايا البيئة، نَرى كيفَ يُؤدِّي الإفسادُ المَنهجيُّ إلى تَخريب التَّوازنِ الكونيّ، فالغاباتُ تُجتثُّ، والبِحارُ تُلوَّثُ، والهواءُ يُسمَّمُ، وكلُّ ذلكَ باسمِ التقدُّمِ دونَ اعتبارٍ لحدودِ النِّظامِ الطَّبيعيّ. وهو ما صوَّرَه القرآنُ مُبكِّرًا بقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. فالإصلاحُ نظامٌ قِيَميّ، وحالةٌ كونيّةٌ تجبُ حمايتُها، وحينَ يُخرِّبُ الإنسانُ هذا التَّوازنَ، يكونُ بذلك قد انقلبَ على الاستخلافِ الذي أوكلَه اللهُ إليه.

أمّا في العلاقات الدَّوليّة، فإنَّ "الكيلَ بمكيالَين" أصبحَ نظامًا عالميًّا؛ حيث تُمنَحُ حقوقٌ لشعبٍ ويُحرَمُ آخَرُ، ويُصنَّفُ المَظلومونَ بحسب الجغرافيا والسِّياسة، وتُمارَسُ الإبادةُ أحيانًا على مَرأًى من العالَم دونَ أن تَهتزَّ مَنظومةُ "العدالة الدَّولية"، وكلُّ هذا يتمُّ باسم القانون، والدِّفاعِ عن الدِّيمقراطيّة، ومُحاربة الإرهاب. وقد وصفَ القرآنُ هذا المَنطقَ حينَ قال: ﴿**أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. فالمَعاييرُ المُزدوجةُ نوعٌ من الفسادِ الأخطَرِ؛ لأنَّها تُدمِّرُ الأجسامَ والنُّفوسَ، وتُفسِدُ العدالةَ من أصلِها.

في كلِّ هذه الصُّوَر، يظهرُ أنَّ الفسادَ في واقعِنا أصبحَ بنيةً راسخةً، تَحكمُها شبكاتُ المَصالح، وتَسندُها أدواتُ الفَهم، وتُعيدُ إنتاجَها أنماطُ الحياة. وإذا كان المُفسِدونَ قد استخدموا في الماضي السَّوطَ أو الخُطبةَ، فهم اليومَ يَستخدمونَ القانونَ، والإعلامَ، والمالَ، والتِّقنيّةَ، والمُحتوى الرقميّ، وتُدارُ كُلُّها بعَقليّةٍ تَبتغي الهَيمنةَ، وتُخفي نَهمَها تحتَ شعاراتِ الحريّة والتقدُّم.

والمَطلوبُ منّا، في ضوءِ هذا، أن نُعيدَ قراءةَ القرآن بوصفه "نظامَ وَعيٍ" يُنيرُ لنا الواقعَ، ويَكشِفُ الأقنعةَ، ويُرشِدُ إلى الخطوة، لنُصبحَ قادرينَ على تَسميةِ الإفساد، وفَهمِ أدواته، ثمَّ الشُّروعِ في بناءِ مُقاومة تَبدأُ من الكلمة، ولا تَنتهي إلا بالتحرُّرِ الكاملِ من عبوديّةِ الظَّلَم.

■ المبحث الثالث:
النماذج المُعاصِرةُ للإفساد - من تمَثيلاتِ القرآنِ إلى صُوَرِ اليَوم-

عندَما يُقدِّمُ القرآنُ شخصيّات مثلَ (فرعونَ)، و(قارونَ)، و(هامانَ)، و(السّامريّ)، و(إبليسَ)، فإنَّه يَصنعُ بنيةً مُتكاملةً للإفساد، تُرسِّخُ فكرة أنَّ كلَّ فسادٍ في الأرض -على تنوُّعِ مَظاهرِه-، يَتغذَّى بشبكةٍ من الأنماطِ المُتكرِّرة.

فهذه الشَّخصيّاتُ، على اختلافِ مَجالاتِها، هي في الأصلِ شَخصيّاتٌ بشريّةٌ تحوَّلَت في القرآنِ إلى نماذجَ قادرةٍ على تجاوُزِ السِّياقِ الزَّمنيِّ، والعَودةِ في كلِّ عصرٍ بأقنعةٍ جديدةٍ، وكلماتٍ مُختلفةٍ، ووسائلَ أكثرَ نُعومةً.

وما يَلفتُ النَّظرَ في الواقعِ المعاصر هو أنَّ هذه النماذج، التي كانَت تُفضَحُ في النصِّ القرآنيِّ، أُعيدَ إنتاجُها ثقافيًّا ونفسيًّا وإعلاميًّا في وعي الإنسانِ الحديث، والمُشكلةُ أنَّها تُقدَّمَ باعتبارها نماذجَ مقبولةً، أو حتَّى مُلهِمة؛ حيث أصبحَ (إبليسُ) شخصيّةً دراميّةً، و(فرعونُ) رمزًا للسُّلطةِ القاهرة، و(قارونُ) قُدوةً للملياردير العصاميِّ، و(هامانُ) خبيرًا إداريًّا في خدمةِ النِّظام، و(السّامريُّ) مُبدِعًا يَقلِبُ الواقعَ في أعين الناس.

إنَّها عمليّةُ تَطبيعٍ عَميقةٌ للنماذج القرآنيّة السَّلبيّة، يتمُّ فيها تحويلُ الإفسادِ إلى طريقٍ من طرقِ النَّجاحِ، أو العَبقريّة، أو "الاختلافِ المَشروع».

فـ(فرعونُ) في القرآن، هو نموذج التَّسلُّطِ المُطلَق، الذي يَختزلُ الدَّولةَ في ذاته، ويُحوِّلُ القانونَ إلى وسيلة للبَقاء، ويُلغي إمكانيّةَ التَّعدُّد داخلَ المُجتمع، قال -تعالى-: ﴿**قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩]. وهو بذلكَ يُجرِّدُ النّاسَ من حقِّهم في التَّفكير، ويَصوغُ «الرُّؤيةَ الجَماعيّةَ» على مَقاسِه، ويُقدِّمُ نفسَه حارسًا للحَقيقة والرَّشاد.

هذا النَّموذجُ يَعودُ في الثَّقافة الحَديثة، حين تُمنَحُ بعضُ القياداتِ سلطةً مُطلَقةً باسم "الخبرة"، أو "الإنقاذ الوطنيّ"، أو "الكاريزما الشَّخصيّة»، ويُصوَّرُ القائدُ المُتفرِّدُ على أنَّه ضَرورةٌ تاريخيّة، وتُقدَّمُ مَركزيّةُ القرار على أنَّها كفاءةٌ إداريّة، ويُقمَعُ الرَّأيُ العامُّ باسم الاستقرار.

كما تُستثمَرُ الدّراما والسِّينما أحيانًا في تَقديم المُستبدِّ كعَبقريٍّ أو زَعيمٍ مُلهم، يَدفعُ الثَّمنَ لأجلِ الوَطن، وهو ما يُعيدُ تَفعيلَ الرَّمزِ الفرعونيِّ في اللاوعي الجَمعيّ.

و(قارونُ)، في المقابل، يُقدَّمُ في القرآن باعتباره نموذجًا لمَن يُنكرُ العَلاقةَ بينَ الثَّروة والقيَم، قال: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ**﴾ [القصص: ٧٨]، فيَنفي أيَّ مسؤوليّةٍ جماعيّةٍ، أو فضلٍ من

الله، ويُرجِعُ كلَّ ما يَملِكُ إلى ذاته. وفي مَشهدِه الأخيرِ، حينَ خسفَ اللهُ به الأرضَ، قوبلَ فضلاً عن الشَّفقة بالدَّهشة:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

واليومَ، يُستعادُ نموذجُ (قارونَ) في صورةِ المُستثمرِ البارعِ، والملياردير المُلهم، الذي يَبني إمبراطوريّتَه من «الذَّكاء والمَوهبة»، ويُفصَلُ المالُ عن الأخلاق، وتُختزَلُ العَدالةُ في تكافُؤِ الفُرَصِ لا في نَتائجها، ويُسخَّفُ كلُّ مَن يتحدَّثُ عن ظلمِ النِّظامِ الاقتصاديِّ العالَميِّ بوَصفِه "حاقدًا" أو "غيرَ واقعيّ".

أمّا (هامانُ)، الذِّراعُ الإداريّةُ لـ(فرعونَ)، فهو نموذج البيروقراطيّة التي تُطوِّعُ الدَّولةَ لخدمة رأسِ السُّلطة. ويُنفِّذُ أوامرَ فرعونَ ببرَاعة هَندسيّة: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]، يُجسِّدُ (هامانُ) هنا المَهارةَ الإداريّةَ المَفصولةَ عن الأخلاق، والبنيةَ التي تُديرُ المجتمعَ، لكنَّه لا يُسائلُها، والآلةَ التي تُنفِّذُ بلا مُراجعة.

يتجلَّى هذا النموذج اليومَ في المدير التَّنفيذيِّ الذي يُنقذُ الشَّركةَ على حساب المُوظَّفينَ، أو السِّياسيِّ الذي يُحسِّنُ أرقامَ الاقتصاد معَ سحقِ العَدالة الاجتماعيّة، أو في التَّقنيِّينَ الذينَ يَبنونَ أدواتِ المُراقبةِ الرَّقميّةِ دونَ مُساءَلةٍ خُلُقيّة.

لقد تحوَّلَ (هامانُ) إلى شخصيّةٍ نموذجيّة في الإدارةِ المُعاصرة؛ حيثُ تُفصَلُ الكفاءةُ عن المَبدأ، ويُقاسُ النَّجاحُ بفعاليّةِ الإنجازِ لا بغاياته.

أمّا (إبليسُ)، فقصّتُه في القرآن تكشفُ عن أوَّل مُفسد في الوجود، ومُنحرف في السُّلوك والمَنطق والتّأويل، حينَ قال: ﴿**قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ**﴾ [ص: ٧٦]، ليُبرِّرَ التمرُّدَ بمَنطق تفاضُليٍّ مَغرور. وهو أيضًا أوَّلُ مَن يُحوِّلُ الأمرَ الإلهيَّ إلى مجالٍ للاجتهادِ الشَّخصيِّ، فالإفسادُ هنا يَبدأُ من قلبِ المَفاهيمِ وتَقديمِ العَقلِ على الوَحي حين يكونُ العَقلُ خادمًا للهَوى.

يُستعادُ (إبليسُ) اليَومَ في الثَّقافةِ المُعاصرةِ بوَصفه نموذجًا للتمرُّدِ المَشروعِ، وللَّذاتِ التي لا تُخضَع. ويُقدَّمُ أحيانًا في الأدبِ الغربيِّ بوصفه كائنًا تَراجيديًّا، ومُثقَّفًا، يُعاني من ظُلمِ السَّماء! وتُحوِّلُ قصّتُه إلى خطابٍ حَداثيٍّ عن "حريّةِ الاختيار»، بل وصلَت بعضُ التيّاراتِ إلى تأسيسِ "كنائسَ إبليسيّة" تحتَ مُسمَّى الحريّةِ الدِّينيّة. وفي المُنتجاتِ الفنيّة، نَلمحُ كيفَ يُطبَعُ الإعجابُ بـ"المُحتال الذَّكيّ"، أو "الخارجِ عن القانونِ الذي لا يُقهَر»، يُعيدُ ذلكَ كلّه تمَثيلَ (إبليسَ)، لا بالاسم، بل بالمَضمون.

أمّا (السّامريُّ)، فهو النَّموذجُ الذي يُنتِجُ رَمزًا بديلاً عن الحَقيقةِ حينَ تَغيبُ القِيادةُ. ففي غيابِ (مُوسى)، صنعَ لهم عِجلاً جَسدًا له خُوارٌ،

وأقنعَهم أنَّه إلهُ (مُوسى). فقدَّمَ لهم الحَقيقةَ في ثوبٍ مُموَّه، فاتَّبعوه دونَ أن يَدعوَهم صراحةً للإلحاد.

وهذا النَّموذجُ حاضرٌ بقوّة اليومَ، في صناعة الرُّموز الإعلاميّة، أو النُّخَب البَديلة، أو الثَّقافات السَّطحيّة التي تَملأُ فراغًا وجوديًّا، دونَ أن تَمتلكَ أيَّ عُمق حقيقيّ. حينَ تَغيبُ القيَمُ الكُبرى، يَظهَرُ "السّامريُّونَ الجُدد»، مَن يُقدِّمونَ مُحتوًى صوريًّا، حواراتٍ بلا عُمق، وأجوبةً لكلِّ الأسئلة الوجوديّة في ثلاثينَ ثانية، وثقافاتٍ بديلةً تَمزجُ المُتعةَ بالطّمأنينة، لكنَّها تَتركُ الإنسانَ في خواءٍ أعمقَ.

وهنا، لا حاجةَ أن يكونَ العِجلُ الحديثُ من ذهب، فهناكُ عِجلٌ من بيانات، أو شُهرة، أو مُؤثِّر رقميٍّ يَملأُ الوجدانَ ولا يُشبعُ العَقلَ. في هذه الصُّور كلِّها، يُصبحُ النموذج القرآنيُّ بنيةً حاضرةً، تُعيدُ إنتاجَ الإفساد عبرَ تَمثيلاته الثَّقافيّة، لا عَبرَ فعله فقط .

وإذا أردْنا فهمَ الإفساد في عصرنا، عَلينا أن نُدرِّبَ نظرَنا على قراءة هذه النماذج كما تتجلَّى في خطاب الحياة اليَوميّة، وفي الشَّخصيات التي تُلمَّعُ، وفي القيَم التي تُسوَّق، وأن نُعيدَ للنّاس الحسَّ الذي يُميِّزُ بينَ الطّاغية والزَّعيم، وبينَ المُبدِع والمُضلِّل، وبينَ العَبقريِّ والأنانيِّ، وبينَ النّاجح والمُفسِد؛ لأنَّ المعركةَ مع الفساد اليومَ تَجاوزَت الواقعَ، وامتدَّت في التَّمثيلِ الرَّمزيِّ، وفي وَعي النّاس، وفي تصوُّرهم عن الحقِّ والخيرِ والشرِّ.

■ المبحث الرابع:
منظومة الإفساد في خدمة الاستكبار العالميِّ -تحليل بنيويٌّ وظيفيٌّ للهَيمنة المُعاصرة-

لم يعد الإفسادُ في عالم اليوم ظاهرةً مُشتَّتةً أو سُلوكًا فرديًّا يَنمو على هامشِ النِّظام، وإنَّما أصبحَ جزءًا من بنيةٍ عالميّةٍ تَعملُ بذكاءٍ وتَخطيطٍ واستمراريّةٍ. وهو ما يُحيلُنا إلى حقيقةٍ قرآنيّةٍ عَميقة: أنَّ الفسادَ، حينَ يتكاملُ مع الاستكبار، يتحوَّلُ إلى مَشروعٍ، أو إلى نظامٍ يتغذَّى على التَّناقضات، ويُديرُ العالَمَ من خلال الفَوضى المُمنهَجة، ويُعيدُ تشكيلَ القِيَم بما يَخدمُ الهَيمنةَ لا الحقيقةَ.

في هذا المَبحث، لا نَنظرُ إلى المُفسدينَ بوَصفهم شَخصيّات رَمزيّةً أو وقائعَ مُعاصرةً فقط، بل نَضعُهم ضمنَ سياقٍ أكبرَ: كيفَ تُوظِّفُ قوى الاستكبار العالميِّ المَنظومةَ الإفساديّةَ كلَّها – بأدواتها وأنماطِها ومَفاهيمِها – كآليّةٍ للسَّيطرة؟

بمَعنى: كيفَ يُصبحُ الفسادُ بنيةً تحتيّةً للهَيمنة، يُعاد إنتاجُها يَوميًّا، لا مُجرَّد عارضٍ جانبيٍّ للتقدُّم أو السِّياسة؟

يُشيرُ القرآنُ إلى هذا المَعنى بشكلٍ دقيق في وصفه للأمم الباغية: ﴿**ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ**﴾ [الفجر: ١١-١٢]. فالإفسادُ هنا وسيلةٌ للطُّغيان، وأداةٌ لبَسطِ النُّفوذ، وشبكةٌ تَضبطُ بها القُوى الغالبةُ حركيّةَ

الشُّعوبِ والمُجتمعات. وهذا ما نَشهدُه اليومَ في الطَّريقةِ التي تُدار بها أدواتُ السُّلطة على المُستوى العالَميِّ، حيثُ تُحوَّلُ الفَوضى إلى أسلوبٍ مُؤسَّسِيٍّ، ويُنظَّمُ الجهلُ، ويُبَثُّ الانحرافُ باسمِ التقدُّمِ.

أولًا: الاقتصاد - السُّوق بوَصفه أداةً للهَيمنة-

في بنيةِ الهَيمنة العالميّة، لا يُترَكُ الاقتصادُ للسُّوق الحرِّ كما يُروَّجُ، وإنَّما يُدار بيد خفيّةٍ تُعيدُ تَوزيعَ الثَّروةِ لصالحِ القلّةِ، ويُستخدمُ بوصفه آلة لإخضاعِ الدُّولِ لا لتَمكينِها، عبرَ القروضِ المَشروطةِ، والاتفاقيّاتِ المُفخَّخة، وشروطِ الاستثمارِ، وآليّاتِ البنكِ الدَّوليِّ وصندوقِ النَّقد.

وهنا، تُستخدَمُ أدواتُ الفسادِ التي تَحدَّثَ عنها القرآنُ - كالبَخسِ والغشِّ والتَّطفيفِ - ولكنْ بطريقة "مُؤسَّسيّة" ومُشرّعَة قانونيًّا. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ**﴾ [الشعراء: ١٨٣]. وما يَحدثُ اليومَ هو بخسٌ جماعيٌّ لمُقدّراتِ الشُّعوبِ، عبرَ السِّياساتِ العابرةِ للحدود.

ثانيًا: الإعلام - السَّيطرة على الوَعي وتوجيه الإدراك-

الاستكبارُ العالميُّ لا يَحتاجُ إلى فرض رأي بالقوّة طالَما يَمتلكُ آلةً إعلاميّةً تُشكِّلُ الوَعيَ وتُعيدُ كتابةَ المَفاهيم. يُمارَسُ الفسادُ هنا على مُستوى اللُّغةِ؛ حيثُ يُحوَّلُ الغازي إلى مُحرِّرٍ، وتُصوَّرُ السَّرقةُ على أنّها

استثمار، والتفكُّكُ الأسريُّ تحرّرًا، والشُّذوذُ هويّةً. وهذا كلُّه يُعيدُنا إلى تحذير القرآن: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١].

يُعيد الإعلامُ في هذه المنظومة تركيبَ الواقع، ويَصنعُ الأحداثَ، ويجعلُ الإنسانَ يُدمنُ على التَّكرار، على التَّفاهة، على النَّزعة الاستهلاكيّة. وهكذا، يُنتِجُ فسادًا ناعمًا، دائمًا، بلا مَلامحَ فجّةٍ.

ثالثًا: التِّقنيّة والمَعرفة – هندسة الإنسان لصالح النِّظام-

ربَّما يكونُ أخطرُ ما تَفعلُه المَنظومةُ الاستكباريّةُ اليومَ هو توظيفُ العلم والتِّقنيّة في إنتاج إنسانٍ مُفرَّغٍ من المَعنى، ومَشغولٍ بالحركة، لا يَملكُ وَقتًا للتأمُّلِ أو الاعتراض. يُراقَبُ، ويُحلَّلُ، يُقاسُ، وتُوجَّهُ خياراتُه على أساسِ بياناته الخاصّة، ويُغرَقُ في محتوًى رقميٍّ يُشوِّشُ الوَعيَ، ويُعيدُ بَرمجةَ الأذواق، ويُنتِجُ نَسقًا مُوحَّدًا من الثَّقافة. وهذا كلُّه يتمُّ عبرَ أدوات يَراها النّاسُ مُحايدةً: الهاتف، والمنصّة، والتَّطبيق، والخوارزميّة. لكنْ في العُمق، تَعملُ هذه المَنظومةُ كوسيلةٍ لسلبِ الحريّة من الدّاخل، بالإلهاء والإدمان والمُراقبة النّاعمة،

وهو ما يُعيد تفسيرَ قول (إبليسَ): ﴿**وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ**﴾ [النساء: ١١٩]. وهنا يشملُ التَّغييرُ التَّغييرَ البُيولوجيَّ، والتَّغييرَ المَفاهيميَّ، والوجوديَّ، والنَّفسيَّ.

رابعًا: القِيَم والرُّموز -قلب البوصلة وتحويل الإفساد إلى فضيلة-

تقومُ الهَيمنةُ على مسخِ القِيَم وتَشويهها، حتى يُقدَّمَ الباطلُ باعتباره حقًّا، والفسادُ حريّةً، والتَّفاهةُ إبداعًا. ويُعادُ تَمثيلُ رموزِ الإفسادِ بطريقة تَجذبُ النّاسَ، ويُصاغُ خطابٌ يَجعلُ من الشُّذوذِ شَجاعةً، ومن الرِّبا نظامًا ماليًّا مُتطوِّرًا، ومن الانحلالِ العائليِّ حريّةً شخصيّةً. وهكذا، تُستثمَرُ الثَّقافةُ والفنُّ والتَّعليمُ في إعادة إنتاجِ مَنظومة إفساديّة مُحكَمة تُشبهُ ما فعلَه (السّامريُّ) حينَ قال: ﴿**فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ**﴾ [طه: ٨٨]؛ أي إنَّه لم يُنكِرِ الدِّينَ، وإنَّما صاغَ بَديلاً له، وفي زمنِ الغيابِ، قدَّمَ رمزًا يُشبِهُ الحَقيقةَ، لكنَّه يَفتقِدُ جوهرَها.

خامسًا: الإفساد بوَصفه أداةً لاستدامة السَّيطرة

يَسعى الاستكبارُ العالميُّ إلى نشرِ الفسادِ، وإبقائه حيًّا؛ لأنَّه يُدرِكُ أنَّ المُجتمعاتِ الفاسدةَ أسهلُ في الانقيادِ، وأضعفُ في المُقاومةِ، وأكثرُ هشاشةً أمامَ الضُّغوطِ.

ولهذا، فإنَّ إدامةَ الإفسادِ وظيفةً استراتيجيّةً هي من ضرورات السَّيطرةِ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠]. فمَكرُهُم جَماعيٌّ مُنظَّمٌ، ويُدارُ بأدقِّ ما في العِلمِ من أدواتٍ. بهذا المَعنى، لم يعدِ الفسادُ مجرَّدَ خطيئةٍ

فرديّة، لقد أصبحَ أداةً وظيفيّةً في منظومة الهَيمنة، يُوظَّفُ فيها الاقتصادُ لخلقِ التَّبعيّة، والإعلامُ لإعادة تشكيلِ القِيَم، والتِّقنيّةُ لتَوجيه الإنسان، والقانونُ لتشريع الظُّلم، والمَعرفةُ لتَصنيع الجَهل المُركَّب. وإذا كان المَشروعُ القرآنيُّ هو مشروعَ إصلاحٍ شاملٍ، فإنَّ الردَّ عليه من قِبَلِ قُوى الاستكبار هو مَشروعُ إفساد شاملٍ، وهذا الصِّراعُ، في جوهره، صِراعٌ بينَ مَنظومتَين: واحدةٍ تَستبطِنُ التَّوحيدَ والإعمارَ، وأُخرى تَقوم على التحكُّم والتَّخريب.

ولذلكَ، فإنَّ مُواجهةَ الإفساد اليومَ لا تكونُ إلّا بفَهمِ المَنظومةِ التي تُنتِجُهُ، وتَفكيكِ البُنى التي تُعيدُ إنتاجَه،

وتأسيسِ وعيٍ قرآنيٍّ شاملٍ يُقابِلُ المَشروعَ بالمَشروعِ، والفِكرةَ بالفِكرةِ، والمَنهجَ بالمَنهجِ.

■ خاتمة:
نحوَ وعيٍ قرآنيٍّ بمواجهةِ الإفسادِ

حينَ ابتدأْنا هذا المَشروعَ، لم نكنْ نَسعى إلى تتبُّعِ كلمةِ «الفسادِ» في القرآنِ الكريمِ باعتباره مُصطلَحًا لغويًّا أو مَوضوعٍ عَقديًّا فحسب، وإنَّما سَعينا إلى فهمِ المَنظومةِ التي يُقدِّمُها النصُّ القرآنيُّ في تَشخيصِ الإفسادِ ومواجهتِه. فالقرآنُ لا يَكتفي بتَسميةِ الأفعالِ، بل يُعرِّي البِنى، ويَكشفُ السِّياقاتِ، ويُعيدُ تَرتيبَ الوَعي ليَكونَ الإنسانُ حاضِرًا في المسؤوليّةِ لا في الحُكمِ.

وقد مررْنا في هذا الكتابِ بمَحطّاتٍ مُتعدِّدة، تنقَّلْنا فيها من التأسيسِ المَفهوميِّ إلى النَّماذجِ التّاريخيّة، ومن صُوَرِ الفسادِ اليَوميّةِ إلى تَجلِّياتِه الرَّمزيّة، ثم إلى تَحليلِه البنيويِّ في قلبِ النِّظامِ العالميِّ المُعاصِر. وكانَ الخَيطُ النّاظمُ لكلِّ هذه المَحاورِ هو أنَّ الفسادَ في القرآنِ أكبرُ من مُجرَّدِ مَعصيةٍ، لأنَّه بحجمِ مشروعٍ مُضادٍّ، وخطرٍ مُتحرِّكٍ، وشبكةٍ مُتداخِلةٍ من القوى والمَفاهيمِ والرُّموز.

فالقرآنُ يُقدِّمُ الفسادَ باعتبارِه نتيجةً لاختيارٍ إنسانيٍّ واعٍ، لا خَلَلًا غَريزيًّا، أو طبيعةً بشريّةً لا مفرَّ منها. كما يُظهِرُ أنَّ المُفسدينَ قد يكونونَ بعيدينَ عن كَراسيِّ الحُكمِ، لكنَّهم ضمنَ دوائرِ التَّأثيرِ، من مُروِّجينَ للهَوى، أو مُؤسَّساتٍ ناعمةٍ، أو رُموزٍ ثقافيّةٍ تُعيدُ تَشكيلَ القِيَمِ ببُطءٍ،

دونَ صُراخٍ ولا دَمٍ.

وهنا يَكمُنُ عمقُ الرُّؤيةِ القرآنيّةِ، التي تُسلِّطُ الضَّوءَ على النيّةِ، والبنيةِ، والنَّتيجة.

وتتأكَّدُ خطورةُ الإفسادِ حين يَرتبطُ بالاستكبارِ، فتتحوَّلُ الرَّغبةُ في التفوُّقِ إلى مَشروعٍ للسَّيطرةِ، ويَتحوَّلُ المالُ إلى وسيلةٍ للإخضاعِ، والفنُّ إلى أداةٍ للتَّطبيعِ، والتَّعليمُ إلى تدريبٍ على الخضوعِ، ويُصبِحُ العقلُ، الذي هو أكرَمُ ما في الإنسانِ، خادمًا لهَوى الجماعةِ أو السُّوقِ أو السُّلطة.

وفي هذه اللَّحظةِ، يكونُ الإفسادُ قد بلغَ ذروتَه، لأنَّه أصبحَ يُمارَسُ من داخِلِ البنيةِ، لا من خارجِها، وأحيانًا يُمارَسُ باسمِها.

من هنا، فإنَّ الوَعيَ الذي يَقترِحُه القرآنُ، في مواجهةِ الفَسادِ، يَبدأُ منَ الفَهمِ. ويقومُ على التبصُّرِ المُتجذِّرِ.

ويَستهدِفُ بناءَ مجتمعٍ مُؤمنٍ بمَسؤوليّتِه، عارفٍ بمَكامنِ الخَللِ، وقادرٍ على تَسميةِ الأشياءِ بأسمائِها.

فكَما أنَّ المُفسدينَ يَعملونَ بمَنظومةٍ، فيَجبُ أن تكونَ المُواجَهةُ مَشروعًا مُتكاملًا: في الفكرِ، والسُّلوكِ، والسِّياسةِ، والاقتصادِ، والتَّربيةِ، والرَّمزِ، والوَعي. ومع كلِّ مُواجهةٍ، لا بدَّ من بناءٍ، ومع كلِّ كَشفٍ، لا بدَّ من بَديلٍ.

ولذلك فإنَّ هذا الكتابَ كُتِبَ ليَفتحَ على أسئلةٍ جديدةٍ، أسئلةٍ تتَّصلُ

بواقعِنا، وتعودُ إلى القرآنِ، استنارةً بالميزانِ، واستئنافًا للمَسؤوليّة. فالفسادُ قد يَظهرُ في صورةِ قانونٍ، أو سِلعةٍ، أو صُورةٍ، أو حتّى قصيدةٍ، لكنَّ القرآنَ يَبقى ميزانَ الفَهمِ، وبوصلةَ المُواجَهةِ، ومصدرَ الطّمأنينةِ التي تُنيرُ الصِّراعَ، ولا تُغَيِّبُه.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول: الفسادُ في التصوُّر القرآنيّ ٧
-من المَفهوم إلى الرُّؤية-

٩ | المبحث الأوَّل: الجذر القرآنيُّ للفَساد

١٣ | المبحث الثاني: الفساد بوَصفِه نَقيضًا للاستخلاف - الرُّؤية القرآنيّة الكلِّيّة-

١٧ | المبحث الثّالث: من الفعل الفرديِّ إلى البنية المُنظَّمةِ - الفسادُ بصفته أفقًا وجوديًّا-

الفصل الثاني: أنواع المُفسِدينَ -الطَّبقات والأدوار والمواقع- ٢١

٢٣ | المبحث الأول: المُفسِدونَ الأفرادُ -من السُّلوكِ الشَّخصيِّ إلى التَّعطيلِ الجَماعيّ-

٢٦ | المبحث الثاني: المُفسِدونَ المُؤسَّسيُّونَ - النُّخَب، الحاشية، دوائر السُّلطة-

المبحث الثالث: المُفسدونَ المُقنَّعونَ -الإصلاحيُّ الزّائفُ، المُتديِّنُ المَغشوشُ، والمُثقَّفُ اَلمُضلَّلُ- ٢٩

الفصل الثالث: أنواعُ الإفساد -مَجالاتُ التَّخلخُلِ ونماذج التَّخريب- ٣٣

المبحث الأوَّلُ: الإفسادُ الخُلُقيّ والرُّوحيُّ -من النِّفاقِ إلى قلبِ المَعايير- ٣٥

المبحث الثّاني: الإفسادُ الاجتماعيُّ والسِّياسيُّ -التَّفرقة، الهَيمنة، الاستكبار- ٣٧

المبحث الثالث: الإفسادُ الاقتصاديُّ والبيئيُّ -الرِّبا، الغشّ، والتَّعدِّي على سُنن التَّوازن- ٤٠

الفصل الرّابع: النَّماذجُ القرآنيّةُ للمُفسدينَ -الأعيان التّاريخيّة والتّحققات الرَّمزيّة- ٤٥

المبحث الأول: فرعونُ وقارونُ وهامانُ - ثلاثيّةُ الفسادِ السُّلطويِّ والماليِّ والبيروقراطيّ- ٤٧

المبحث الثّاني: إبليس والسّامريُّ - الفسادُ من داخل الخطابِ الدِّينيّ ٥٠

٥٣ | المبحث الثالث: المُفسدونَ من قوم الأنبياءِ ﷺ - تَعطيلُ الرِّسالةِ من قلب المُجتمعِ الرِّسَاليّ-

٥٧ | المبحث الرابع: الامتداداتُ المُعاصرةُ للنَّماذج القرآنيّة - فرعون وقارون وهامان وإبليس والسّامري في السِّياق الغربيّ

الفصل الخامس: أهداف المُفسد ٦١
-الهَيمنة، التَّفكيك، إخضاع الوَعي-

٦٣ | المبحث الأول: السَّيطرة على الإنسان - من الاستعبادِ العلنيّ إلى الاستلابِ النّاعمِ-

٦٦ | المبحث الثّاني: تَفكيك البِنى الجَماعيّة -من تمَزيقِ المُجتمعاتِ إلى تَشويهِ الانتماء-

٦٩ | المبحث الثالث: إخضاع الوَعي -من تَسليعِ الحَقيقةِ إلى تَزييف المَعنى-

الفصل السادس: أدوات الإفساد ٧٣
-من الخطاب إلى التِّقنيّة-

٦٩ | المبحث الأوَّل: اللُّغة والخطاب -صناعة الشَّرعيّة وتَجميل القُبح-

المبحث الثاني: الإعلامُ والثَّقافةُ -هندسةُ الإدراكِ وتَطبيعُ الفساد (شواهد قرآنية)- ٧٨

المبحث الثالث: التِّقنيّةُ والمَنظوماتُ الرَّقميّة -الفساد الخفيُّ في هندسة الواقعِ والذّات- ٨١

الفصل السّابع: مُواجهةُ الإفساد -من التَّخطيط المُقاوِم إلى الفعل الرِّساليّ- ٨٥

المبحث الأول: الرُّؤية القرآنيّة للمُواجَهة -الإفساد فعلٌ مُنظَّم والمُواجَهة كذلك- ٨٧

المبحث الثّاني: أدوات المُواجهةِ القرآنيّة -من تَثبيتِ المَفاهيمِ إلى بناء البَديل- ٩٠

المبحث الثالث: الوَعيُ الجماعيُّ والمُمانعةُ الحضارية -من الرَّفض الفرديّ إلى مُقاومةٍ مُنظَّمة- ٩٢

الفصل الثّامنُ: تجلِّياتُ الإفسادِ -بينَ التّاريخِ والرّاهنِ والمُستقبَل- ٩٥

المبحث الأوَّل: تَطبيقاتٌ من التّاريخِ -وقائعُ قرآنيّةٌ عن المُفسِدينَ في سياقاتِ الحُكمِ والمُجتمعِ- ٩٧

المبحث الثاني: تَجلِّيات الإفسادِ في واقعنا المُعاصر -من الوقائعِ اليَوميّة إلى السِّياساتِ الكُبرى- ١٠١

المبحث الثالث: النماذج المُعاصِرةُ للإفساد – من تمَثيلاتِ القرآنِ إلى صُوَرِ اليَوم- ١٠٦

المبحث الرابع: منظومة الإفساد في خدمة الاستكبار العالميِّ -تحليل بنيويٌّ وظيفيٌّ للهَيمنة المُعاصرة- ١١١

خاتمة: نحوَ وعيٍ قرآنيٍّ بمواجهةِ الإفسادِ ١١٦

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

عن هذا الكتاب

يَتنـاولُ هذا الكتـابُ مفهومَ الإفسـادِ في الأرض، كما عرضَه القـرآنُ الكريم، فيَبـدأُ بتأصيلِ المَفهومِ لغويًّا وقرآنيًّا، ثم يَنتقلُ إلى عرض أصنافِ المُفسِـدينَ، وأنواعِ الإفسـادِ في مجالات السِّياسـةِ والاقتصادِ والمجتمعِ والقِيَـم. ويُقدِّمُ الكتابُ نماذجَ قرآنيّةً حيّةً للمُفسِـدينَ، كأفرادٍ وجَماعـاتٍ، ثم يَتوجَّهُ إلى رصدِ الواقعِ الرّاهنِ، مُحلِّلًا أنماطَه المُعاصِرةَ، وتَجلِّياتِها في البُنى السِّياسـيّةِ، والإعلاميّة، والثَّقافيّة، والاقتصاديّة. ويُتوِّجُ الكتابُ بمَبحثٍ تَحليليٍّ، يَتناولُ كيفيّةَ اسـتخدامِ الاستكبارِ العالميِّ للمَنظومةِ الإفساديّة، لإحكامِ الهَيمنةِ على الشُّعوب، وإطالةِ أمَدِ السَّيطرةِ، من خلال تَفكيكٍ بنيويٍّ وَظيفيٍّ لهذه الشَّبكةِ العابرةِ للقارّات.

يُعيد هذا العَملُ طرحَ سؤالِ الإصلاحِ من داخلِ النصِّ القرآنيِّ، بوَصفِه مَشروعًا حضاريًّا نَقيضًا لمشروعِ الإفساد.

ويَدعـو القارئَ إلى رُؤيةِ العالَمِ ببَصيرةِ الوَحي، بعيدًا عـن الضَّجيجِ، حيثُ تتَّضحُ المَعاركُ الكُبرى، بينَ الدُّول، وبينَ المَعنى والفَراغِ، بينَ البنيانِ والهَدم، بينَ الحقِّ والزَّيف.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد